

الجاراة

١٨٤٧

ترجمة د. سامي الدروبي

اعادة تنسيق وفصل

مكتبة الرمحي أحمد

« الجارة » (Hoziaïka) ، كتب
دوستوفسكى هذه القصة سنتى
١٨٤٦ و ١٨٤٧ ، ونشرت فى مجلة
« حوليات الوطن » فى شهرى تشرين
الأول (اكتوبر) وكانون الأول
(ديسمبر) سنة ١٨٤٧ ، مج ٥٤ ،
مج ٥٥ .

الفصل الأول

١



أوردينوف أخيراً أن يستبدل بمسكنه مسكنا
آخر • ان صاحبة البيت التي ينزل عندها ،
وهي امرأة طاعنة في السن ، فقيرة جدا ، أرملة
موظف ، قد اضطرت ، لأسباب لم تكن في
الحسبان ، أن تترك سان بطرسبرج وأن تمضي تعيش عند أقرباء لها ، في
قرية صغيرة ، حتى دون أن تنتظر الى آخر الشهر ، موعد انتهاء استئجارها
المنزل • وقد بقي الشاب حتى آخر الشهر ، المدفوع الاجرة سلفا ، وهو
الآن يفكر ، على أسف وحسرة ، في هذا البيت الذي يضطر الى تركه ،
ويشعر من ذلك بحزن شديد • ومع ذلك فالشاب فقير ، وأجرة المسكن
باهظة • ها هو ذا منذ الغداة ، بعد سفر صاحبة البيت ، يضع قبعته على
رأسه ، ويخرج مطوّفا في الأزقة الضيقة من بطرسبرج ناظرا الى اللافئات

المصوقة على أبواب الدور ، متوقفا خاصة على العمارات القائمة المظلمة المكتظة بالسكان ، فان الأمل فى العثور على غرفة تناسبه لدى مستأجرين فقراء فى مثل هذه العمارات أكبر منه فى عمارات أخرى •

وانه لفى هذا الطواف والبحث ، اذا هو يشعر بعد فترة باحساسات جديدة تكاد تكون مجهولة ، تفزوه شيئا بعد شيء • لقد أخذ ينظر فيما حوله ، ذاهلا غير حافل أول الامر ، يقظا شديد الانتباه بعد ذلك • ان الجمهور وحياة الشارع والصخب والحركة والاشياء الجديدة وهذا النشاط كله وهذا الاضطراب الذى تضطربه الحياة اليومية فيضجر ساكن بطرسبرج المشغول المجهد المرهق الساعى عمره عبثا ، بجهد ضخم ، الى الهدوء والراحة فى عشٍ دافئ يحصله بعمله أو وظيفته أو بوسائل أخرى ، ان كل هذه الاشياء التافهة السخيفة ، توقظ الآن فى نفس أوردينوف احساسا عذبا فرحا يوشك أن يكون حماسة • فخذاه الشاحبان يفشاهما شيء من حمرة ، وعيناه تسطمان بأمل جديد ، وهو ينشق الهواء البارد الطرى أنفاسا كبيرة ، بشراة • انه يحس بخفة عظيمة لا عهد له بمثلها من قبل •

لقد عاش دائما حياة هادئة معتزلة ، وحصل منذ ثلاث سنين على درجة علمية ، فلما أصبح بذلك حرا على قدر الامكان ، مضى يزور رجلا عجوزا لم يكن يعرفه قبل ذلك الا بالاسم • وقد ترك ينتظر مدة طويلة ، الى أن تكرم حاجب يرتدى ثياب الحجاب فى منازل الكبار ، أن يبلغ العجوز وصول الشاب مرة ثانية • فأدخل الى قاعة عالية السقف مظلمة مقفلة لا تحسن وفادة زوارها ، قاعة من هذه القاعات التى لا يزال يوجد مثلها فى بعض القصور التى تجمدت فيها الحياة • هنالك فى هذه القاعة رأى شيخا أشيب الشعر متقلا بالأوسمة والنياشين هو صديق المرحوم أبيه ، والوصى عليه • نقده الشيخ مبلغا ضئيلا من المال هو البقية الباقية

من ميراث أجداده الذى بيع بأمر من القضاء سدادا لديونه • فتناول أوردينوف المال غير مبال ، ثم ودّع الشيخ الوصىّ عليه الى الأبد ، وخرج الى الشارع • كان ذلك الأصيل من الخريف باردا مظلما ، وكان الفتى ساهما شارد اللب واجما ، فى قلبه حزن كبير يمزقه تمزيقا • ان عينيه تشتملان بلهب ، وان جسمه تعتريه رعشات حمى • وكان ، وهو سائر فى طريقه ، يجرى فى ذهنه حسابا ، فيدرك أنه بالمال الذى أخذه من الشيخ قد يستطيع أن يعيش سنتين أو ثلاثا ، وربما أربعا ، هذا اذا لم يأكل دائما كلما جاع • وهبط الليل • وأخذ المطر يهطل • واستأجر الفتى أول مأوى وقع عليه ، فما هى الا ساعة حتى كان قد أقام به ، واستقر فيه • وهنالك ، فى هذا المسكن ، حبس نفسه حبس من يعيش فى دير ، واستغنى عن العالم استغناء كاملا ، حتى أصبح بعد سنتين متوحشا كل التوحش لا يعاشر أحدا •

أصبح كذلك دون أن يلاحظ • كان لا يخطر بباله أن هناك حياة أخرى صاحبة مضطربة متغيرة جذابة ، لامر منها عاجلا أو آجلا • صحيح أنه سمع عن هذه الحياة بالرغم منه، ولكنه كان يجهلها ولا يسعى الى معرفتها • • لقد قضى حياته فى عزلة • وهو الآن غارق غرقا كاملا فى هوى عميق ، هوى لا يشبع ولا يرتوى ، هوى من تلك الأهواء التى لا تدع لأشخاص مثل أوردينوف أى فرصة للقيام بأى نشاط عملى حياتى : ذلك الهوى هو « العلم » • كان ذلك الهوى يفسد شبابه بسم بطيء لذيد ، حتى ليعكر عليه راحة ليليه ، ويحرمه من الغذاء الصحى والهواء النقى الذى لم يكن يدخل مأواه قط • ولكن أوردينوف ، المولع بهواه المشغوف به ، كان لا يريد أن يلاحظ ذلك • انه شاب ، وهو لا ينشد الآن شيئا عدا ذلك • ان هواه يدعه طفلا فى كل ما هو حياة خارجية ، ويجعله عاجزا الى الأبد عن اقصاء بعض النامس ليتخذ لنفسه مكانا صغيراً بينهم عند

الضرورة • ان العلم هو في بعض الأيدي رأسال ، أما هوى أوردينوف
فقد كان سلاحا موجها ضده •

ولم تكن الرغبة الواضحة المنطقية في التعلم هي التي وَّجَّهته الى
الدراسات التي وقف نفسه عليها حتى ذلك اليوم ، بل كان ذلك نوعا من
انجذاب لا شعورى • لقد 'عدَّ' شخصا غريبا متفردا منذ أن كان طفلا ،
لأنه لم يكن يشبه رفاقه فى شيء • انه لم يعرف أبويه • وهو بسبب طبعه
الغريب وبسبب توحيته قد فاسى كثيرا من زملائه فى المدرسة ، فزاده ذلك
عبوسا ، حتى ابتعد نيتاً فشيئاً عن جميع الناس ابتعادا كاملا ، وانطوى على
نفسه •

وهو فى دراساته المعتزلة لم يتبع لا فى الماضى ولا فى الحاضر نظاما
أو ترتيبا • كان ذلك فيه أشبه بالاندفاع الأولى ، بالحماسة الأولى ،
بالحميا الأولى التي يشعر بها الفنان • خلق لذاته مذهبا خاصا به : فكر
فيه سنين طويلة ، فكانت تتكون فى نفسه ، شيئا بعد شيء ، صورة ما تزال
غامضة ، ما تزال بغير شكل ، ولكنها جميلة جمالا لا نظير له ، صورة
الفكرة تتجسد فى شكل جديد مشرق مضيء • وكان هذا الشكل الذي
يريد أن يخرج من نفسه يعذبه ويرهقه من أمره عسرا • انه يشعر
بأصالته وصدقه وقوته شعورا وجلا خجلا • كان مخلوق يريد منذ الآن
أن يعيش بنفسه ، أن يتخذ شكلا ، أن يتقوى وأن يتعزز فى هذا الشكل ،
ولكن نهاية الاختمار ما تزال بعيدة ، ولعلها بعيدة جدا ، ولعلها مستحيلة
المال لا يمكن الوصول اليها بحال •

ها هو ذا أوردينوف اذن يسير فى الشوارع كغريب ، كناسك خرج
فجأة من صحراء صمته ، فى المدينة الصاخبة المتحركة • ان كل شيء يبدو
له جديدا طريفا شائقا • ولكنه غريب عن هذا العالم الذي يغفل من حوله

ويضطرب ، يبلغ من غرابته عنه أنه لم يخطر بباله أن يدهش من احساساته العجيبة هذه . كان لا يبدو أنه واعٍ توحشه . بالعكس : ان شعورا بالفرح ، شعورا يشبه شعور الجائع الذي صام زمنا طويلا ، ثم أعطى ما يأكله ويشربه ، كان ينشا في نفس اوردينوف . لقد يبدو امرا غريبا أن يكون حادث تافه تفاهة تغير مسكن كافيا لأن يطيش لب ساكنٍ من سكان بطرسبرج وأن يلقى في نفسه هذا الانفعال ، ولو كان أوردينوف . ولكن يجب أن نذكر أن هذه المرة التي يخرج فيها أوردينوف ربما كانت هي المرة الاولى التي يخرج فيها لعمل . وكان استمتاعه بالطواف في الشارع ما ينفك يزداد ، وأصبح ينظر الى جميع الاشياء نظرة متسكع .

ولكنه ما يزال حتى الآن وفيا لشاغله المؤلف ، فهو يقرأ في المشهد، الذي ينكشف أمامه رائعا ، قرآته بين سطور كتاب . ان كل شيء يفجأ بصره ، انه لا يدع احساسا واحدا ، وهو بنظرته الساهمة يتفرس وجوه المارة ، ويلاحظ مظهر كل ما يحيط به في انتباه ، ويصفي مفتونا الى اللغة التي يتخاطب بها الشعب ، كأنه يتحقق خاصة من صدق النتائج التي خلص اليها في هدوء ليليه المعتزلة . وكثيرا ما يخطف بصره أمر تفصيلي ، فيوظف في نفسه فكرة ، فيشعر لأول مرة بالأسف والحسرة على أنه دفن نفسه حيا في زنزاتته . ان كل شيء يجري هنا جريانا أسرع : نبضات قلبه أقوى ، وفكره الذي أرهقته العزلة وكان لا يعمل الا بتحريض من الجهد المتحمس ينطلق الآن بخفة وثقة وجراءة . وهو يتمنى ، عدا ذلك، على غير شعور تقريبا ، أن يدخل في هذه الحياة الغريبة عليه ، بشكل من الأشكال . ذلك أنه ، حتى هذا اليوم ، كان لا يعرف هذه الحياة . أو قل انه كان لا يتوجسها الا بفريزة الفنان . ان قلبه يخفق الآن بقلبي الحب والموودة رغما عنه . انه يتفرس بمزيد من الانتباه وجوه الناس الذين يمرون أمامه ، ولكنهم جميعا بعيدون مهمومون ساهمون . . . وشيئا فشيئا

تبددت عاطفة أوردينوف • أخذ الواقع يرهقه منذ الان ، ويفرض عليه نوعاً من الخشية والاحترام • ان هذه الفورة من الاحساسات التي كان يجهلها الى ذلك الحين أخذت تتعبه • فكما ينهض مريض من المرض عن سريره لأول مرة فرحاً ، ثم يعود فيسوى بتأثير الضياء وزوبعة الحياة الساطعة ، كذلك أوردينوف بهرته ألوان الجمهور الذي يمر أمامه ، وأتعبته ضجته ••• فاعتراه الحزن ، واتابه القلق • وأخذ يشعر بخوف على حياته كلها ، وعلى نشاطه ، وحتى على مستقبله • ان فكرة جديدة تقتل هدوءه : لقد قال لنفسه فجأة انه وحيد ، فما من أحد يحبه ، ولا أتبع له هو أن يحب أحداً في يوم من الايام • ان بعض المارة الذين كلمهم عرضاً حين بدأ جولته قد نظروا اليه نظرة غريبة ، جارحة • لقد لاحظ أنهم يعدونه رجلاً مجنوناً ، أو يعدونه انساناً شاذاً كل الشذوذ في أقل تقدير ، وذلك صادق تماماً على كل حال • وتذكر عندئذ أن جميع الناس كانوا يضيقون ذرعاً بوجوده ، دائماً ، وتذكر أن جميع الناس كانوا منذ طفولته ، يتحاشونه ويتجنبونه بسبب طبعه المغلق العنيد ، حتى أن العطف الذي كان يظهر في نفسه أحياناً كان يشفق على الآخرين أو كانوا لا يفهمونه • ولقد تألم من هذا كله في طفولته ، يوم لم يكن يشبه أى طفل في سنه • انه يتذكر ذلك الآن ، فيدرك أن جميع الناس قد هجروه وهربوا منه في كل وقت من الأوقات •

وظل أوردينوف يسير ويسير ، فاذا هو يجد نفسه في حي بعيد جداً عن وسط المدينة ، دون أن يشعر كيف وصل الى هذا المكان • وبعد أن تناول غداءً مختصراً في مطعم صغير ، استأنف طوافه في الشوارع ، فاجتاز ميادين ، حتى وصل هكذا الى طريق تصطف على جانبيه أشجار صفراء وغبراء • ليس ها هنا عمارات غنية ، بل أكواخ بائسة ، ومباني مصانع ضخمة عملاقة جمراء مسوَّدة ذات مداخن عالية • وكل ما حول

ذلك أرض خلاء قفراء • ان كل شيء هنا عابس كالجعدو ، أو ذلك ما يدا لصاحبنا أوردينوف • وكان المساء يقترب • وفي آخر شارع ضيق طويل وصل اوردينوف الى الساحة الصغيرة التي تقع فيها كنيسة الأبرشية •

دخل اوردينوف الكنيسة ذاهلا • كان القداس قد انتهى منذ قليل • والكنيسة تشبه أن تكون خالية • هاتان امرأتان عجوزان راكبتان عند المدخل • وهذا قندلفت ، وهو شيخ قصير اشيبي الشعر ، يطفىء الشموع • ان أشعة الشمس الغاربة تجتاز زجاج القبة الضيقة موجة كبيرة فتير أحد الهياكل بضياء ساطع • ولكن تلالؤ الاشعة يكبو شيئا بعد شيء ، فكلمنا ازداد تكاثف الظلام فى داخل المعبد ازدادت فى بعض المواضع روعة تألق الأيقونات المذهبة ينيرها الضياء المهتر المنبعث من السُرُج والشموع • ألمَّ بأوردينوف غم عميق ، وشعور غريب بالاختناق ، فاستند الى الجدار فى أعمق ركن من الكنيسة ، واسترخى لحظة • ولكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه حين سمع وقع خطوات صماء منتظمة تدوى تحت قبة الكنيسة ، هى خطوات زائرین اثنين • رفع أوردينوف عينه فأحس بحب استطلاع لا يوصف حين وقع بصره على هذين القادمين • انهما شيخ عجوز وامرأة شابة • العجوز فارغ القامة منتصب القد ، لكنه شديد النحول يعلو وجهه شحوب مرضى • يقدر المرء من النظر الى مظهره أنه تاجر من اقليم بعيد • انه يرتدى قفطانا طويلا أسود محلول الأزرار مبطن بفرأ لا شك أنه الرداء الذى يرتديه للأعياد ، وتحت القفطان يبدو ثوب آخر طويل جدا أحكم عقد أزراره من أعلاه الى أدناه • وقد لف عنقه بوشاح أحمر فاتح ، على اهمال ، وأمسك بيده طاقة من فرو ، وتهدأت على صدره لجة رقيقة شبياء ، والتمعت تحت حاجبيه الكثيفين نظرة محمومة متكبرة عميقة •

أما المرأة فهي فى نحو العشرين من عمرها ، جميلة جمالا رائعا •
انها ترتدى معطفا جميلا قصيرا أزرق مبطنا بفراء نادر • وقد غطت رأسها
بمنديل من حرير أبيض ، معقود تحت الذقن • وهى تمشى غاضبة
طرفها : ان وقارا واجما نابعا من شخصها كله ، يلاحظ واضحا حزينا
على حواشى وجهها الرقيق ذى الخطوط الدقيقة المرهفة العذبة الحلوة ،
الفتية المراهقة •

ان فى هذين الرفيقين غير المنتظرين لشيئا غريبا •

توقف الشيخ فى وسط الكنيسة وانحنى الى جميع الجهات رغم أن
الكنيسة خالية خلوا تاما ، ففعلت صاحبته مثلما فعل ، ثم تناول ذراعها
وقادها أمام صورة كبيرة من صور العذراء التى باسمها تسمى الكنيسة ؛
كانت الصورة تسطع قرب الهيكل فى ضوء باهر من نيران يعكسها اطارها
الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة •

سلم القندلفت ، الذى كان وحيدا فى الكنيسة ، على الشيخ باحترام •
فرد عليه الشيخ السلام بإشارة من رأسه • وركعت المرأة أمام الايقونة ؛
فتناول الشيخ طرف الحجاب الملق بالأيقونة فغطى به رأسها • ودوى فى
الكنيسة بكاء منتحب أصم •

دهش أوردينوف من جلال هذا المشهد كله ، واشتعل فيه شوق
شديد الى رؤية خاتمه • بعد دقيقتين أنهضت المرأة رأسها ، فأثار ضوء
المصباح القوى وجهها الجميل الأخاذ من جديد • ارتمش أوردينوف
وتقدم خطوة الى أمام • كانت المرأة قد مدت يدها للشيخ ، فتناولها وخرج
الاثنان من الكنيسة على هون • كانت دموع تلتصق فى عيني المرأة الشابة ،
وهما عينان زرقاوان عميقتان ، تملوهما أهذاب تبرز على بياض وجهها
وتظلل خديها الشاحين • وكانت ابتسامة تضىء شفيتها ، ولكن وجهها

يحمل اثار رعب غريب وذعر شديد من ذعر الاطفال • سدت نفسها الى الشيخ وجلة خجلى ، وكان من يراها يلاحظ أنها ترتعش ارتعاشا قويا من شدة الانفعال •

شعر اوردينوف بماطفة غريبة فرحة عنيدة تحرضه على أن يتبعها فأسرع يسير وراهما حتى اذا وصلا الى الفناء الذى يقع أمام الكنيسة قطع عليهما الطريق ، فرشقه الشيخ بنظرة شزراء قاسية معادية ، واقت عليه المرأة الشابة نظرة قاسية أيضا ، ولكن ليس فيها شيء من حب الاستطلاع ، وانما هى نظرة ذاهلة ، كأن فكرة أخرى بعيدة كانت تسترقها •

ظل أوردينوف يتبعهما من غير أن يدركا ذلك • وكان الليل قد هبط • دخل الشيخ العجوز والمرأة الشابة فى شارع كبير عريض قدر تملؤه دكاكين صغيرة شتى ، ومخازن دقيق ، وفنادق حقيرة ، شارع يفضى الى ظاهر المدينة رأسا • وفى هذا الشارع دخلا زقاقا طويلا ضيقا يحف به من طرفيه سياجان ، وينتهى عند جدار ضخم مسود هو جدار عمارة كبيرة مؤلفة من أربعة طوابق ، يطل مخرجها الآخر على شارع كبير مكنظ بالسكان • فلما أوشكا أن يلبثا هذه العمارة التفت الشيخ فجأة الى وراء ، ورشق أوردينوف بنظرة تعبر عن التبرم ونفاد الصبر • فتوقف الفتى فوراً وقد دهش هو نفسه من سلوكه • ثم التفت الشيخ مرة ثانية كمن يريد أن يتأكد من أن تهديده قد أحدث أثره • وولج الاثنان ، الشيخ والمرأة الشابة ، فى فناء المنزل •

عاد أوردينوف أدراجه يشوب الى منزله • انه معتكر المزاج قاتم النفس • وهو يأخذ على نفسه أنه أضاع نهاره كله سدى على هذا النحو، وأنه أجهد نفسه بغير داع الى هذا الاجهاد ، وأنه خاصة قد قام بهذا العمل الذى عده نوعا من مغامرة وما هو فى حقيقة الأمر الاحداث تافه مبتذل •

ورغم ما شعر به عند الصباح من أسف لعزلته وتوحشه ، فان غريزته الان تحمله على أن يتجنب كل ما يمكن أن يصرفه عن عالمه الداخلى الفنى ، وأن يذهله عنه وأن ينتزعه منه . انه الآن يفكر فى ركنه الهادى ، بشئ من الحزن وشئ من الحسرة . ثم شعر بغم وخوف ، وأحس بهمٍ وقلق ، قلق على وضعه غير المستقر ، وعلى المساعى التى يجب أن يقوم بها ، وكان يحقنه فى الوقت نفسه أن يضطر الى الاهتمام بمثل هذه الأمور التافهة البائسة . وأخذ منه التعب كل مأخذ حتى أصبح لا يستطيع أن يربط بين فكرتين ، ووصل أخيرا ، فى ساعة متأخرة ، الى مسكنه . وما كان أشد دهشته حين لاحظ أنه أوشك أن يمر أمام بيته دون أن يعرفه . فجز رأسه استغرابا لهذا الدهول الذى عزاه الى تبعه ، وصعد سلم المنزل صعودا آليا حتى وصل الى غرفته التى تقع تحت السطح . أشعل أوردنوف شمعة . فما هى الا دقيقة واحدة حتى انبعثت صورة المرأة الشابة الباكية فى خياله . ان هذه الصورة تلازمه وتحاصره قوية التأثير فى نفسه . وهو يتأمل سمات وجهها الحلوة العذبة الهادئة ، وجهها الذى يرين عليه حنان خفى وخوف قوى ، وتبلله دموع حماسة من حماسة الأطفال أو ندامة من ندامة الأطفال ، فيتأمل ذلك كله بحبٍ يبلغ من القوة أنه يحس عينيه تحتجيان وأنه يشعر بنار تسرى فى عروقه كلها . ولكن الرؤيا ما تلبث أن تزول . فبعد الاحتياج يأتى التفكير ، ثم يأتى الندم ، ثم يأتى نوع من الغضب . وبعد ذلك يتدثر أوردنوف بأغطيته ويرتمى على سريريه ، دون أن يخلع ملابسه ، وقد هذه التعب .

هدأ . . .

استيقظ أوردنوف فى ساعة متأخرة من الضحى . انه يشعر بخنق ، ويشعر بحزن ووهن . ارتدى ثيابه بسرعة محاولا أن يفكر فى همومه اليومية ، حتى اذا صار خارج المنزل ، وجهه خطاه فى اتجاه هو عكس

الاتجاه الذى سار فيه بالأمس • واهتدى أخيرا الى غرفة فى مكان ما ،
 بمنزل رجل ألماني فقير يسمى سيز ، ويعيش مع ابنته تينيش • فبعد أن
 استلم سيز عربون أجر الغرفة ، راح ينزع اللافته التى كانت معلقة عند
 مدخل المنزل • وقد ارتضى أن يؤجر الغرفة لصاحبنا أوردينوف بسبب
 شغف أوردينوف بالعلم ، لأنه كان ينوى هو نفسه أن ينصرف الى الدرس
 انصرافا جديا • وقدّر أوردينوف أنه سيستقر بهذا المنزل فى ذلك المساء
 نفسه • وعاد يسير فى الطريق المفضى الى بيته ، ولكنه لم يلبث أن فكر
 قليلا ، فاذا هو يتجه فجأة فى الاتجاه المعاكس • كان نافذ الصبر ، فبدأ له
 الطريق طويلا كل الطول • ووصل أخيرا الى الكنيسة التى دخلها مساء
 أمس • كانت الصلاة ترتل • فاختار مكانا يستطيع منه أن يرى جميع
 الداخلين الى الكنيسة تقريبا • ولكن الشخصين اللذين كان ينتظرهما لم
 يكونا هنالك • وبعد أن لبث ينتظر مدة طويلة ، خرج متقد الوجه
 احمرارا • واذا أصر على أن يكبح عاطفة كانت تغزوه رغما عنه ، حاول
 أن يغير مجرى تفكيره بكل ما أوتى من قوة • وارتد يفكر فى الشئون
 اليومية ، فرأى أنه قد آن له أن يتغدى ، واذا ظن أنه يشعر بجوع حقا ،
 دخل الى ذلك المطعم الصغير نفسه الذى تغدى فيه بالأمس • ولم يتذكر
 بعد ذلك كيف تركه •

وظل يطوف زما طويلا فى الشوارع والأزقة المزدهمة بالسكان
 أو الخالية المقفرة ، دون أن يكون فى ذهنه أفكار واضحة ؛ فوصل أخيرا
 الى مكان نامٍ ليس من المدينة ، بل هو برية يمتد فيها حقل مصفر •
 هنالك كان يرين صمت عميق ، فشعر أوردينوف باحساس لم يشعر بمثله
 من زمن طويل ، فأب الى نفسه • ان ذلك النهار هو من تلك النهر
 الجافة الباردة التى ترى أحيانا فى شهر تشرين الاول ببطرسبرج • وغير
 بعيد من ذلك المكان كان ثمة كوخ من أكواخ الفلاحين ، وعلى مقربة من

الكوخ ، كان ثمة كومتا علف • وهذا حصان صغير ناتىء الجنين ، خافض
الراس متدلى اللسان ، يقف بلا عدة قرب عربة صغيرة ذات عجلتين •
كان الحصان كأنه يحلم بشيء ما • وهذا كلب يهمهم وهو يقضم عظمة
قرب عجلة محطمة • وهذا طفل فى الثالثة من عمره لا يرتدى من الثياب
الا قميصا يحك رأسه الأشقر ، وينظر مدهوشا الى هذا الحضرى الواقف
هنالك • ووراء الكوخ تبدأ حقول وبساتين وعند الأفق يرى الخط الاسود
الذى تبدأ عنده الغابة ، يحف بالسماء الزرقاء • وفى الجهة المقابلة
تتكسد غيوم نلج وتبدو كأنها تطارد أمامها سربا من الطيور المهاجرة
هاربا فى السماء بلا صياح • كل شيء صامت ، كل شيء حزين ، كأنه
نوع من الانتظار ••• أراد أوردينوف أن يوغل مزيدا من الايفال ،
ولكن القفر أخذ يقبض صدره • فعاد الى المدينة حيث سمع على حين
فجأة رنين نواقيس الكنائس تدعو المؤمنين الى صلاة الغروب • حث
أوردينوف الخطى ، فلم يلبث أن وجد نفسه أمام الكنيسة التى أصبح
يعرفها معرفة جيدة منذ الليلة البارحة •

كانت المرأة المجهولة موجودة هنالك •

انها راكعة ، عند المدخل ، بين جمهور المصلين • شق أوردينوف
لنفسه طريقا بين الشحاذين والمعجائز اللابسات أسمالا رثة والمرضى
وذوى العاهات الذين ينتظرون الصدقات على باب الكنيسة ، وجاء يركع
قرب المرأة الشابة المجهولة • تلامست ثيابهما • مسمع أوردينوف نفسها
اللاهث يخرج من بين شفتيها ، ويهمس بدعاء حار • ان عاطفة من تقوى
تعصف بقسمات وجهها الآن ، كما كانت تعصف بها أمس ، وان دموعا
تسيل على خديها الملتهين وتجف عليهما ، كأنما لتغسلهما من جريمة
رهية • كان المكان الذى يصليان فيه مظلما تماما • وفى لحظات قليلة

كان الهواء الذي يدخل من النافذة الضيقة المفتوحة يهز شعلة الشمعة فتسير وجه المرأة الشابة بضياء مترنح ، فاذا بكل قسمة من قسّمات هذا الوجه المنقوش في ذاكرة أوردينوف يعتم بصر الرجل ويطلق قلبه بألم أصم لا يطاق . ولكن هذا الألم كان يشتمل على متعة لا تقالب . ولم يستطع أوردينوف أن يتمالك نفسه ، فما هو ذا صدره يرتجف ، وما هو ذا يبكي ناشجا ويميل بجبينه المحترق فيضعه على البلاط البارد من أرض الكنيسة . أصبح لا يسمع شيئا ولا يحس شيئا الا عذاب قلبه الذي يموت ألما لذيذا .

هل العزلة هي التي أنشأت لدى أوردينوف هذه الحساسية المفرطة وهذا الصفاء وهذا الضمف في العاطفة ؟ أكان توثب القلب هذا يتبها في ذلك الصمت الخائق اللانهائي ، صمت الليالي الطويلة الساهرة الأرقّة التي تتخللها صوات لا يشعر بها صاحبها ، وتتخاللها رعشات روح نفذ صبرها ، أم أن الأمر لا يبدو أن يكون قد آن أو ان اللحظة الباهرة ، المحتومة ، التي لا معدى عنها ولا مفر منها ؟ انه ليتفق في يوم حار خائق أن تتجهم السماء كلها على حين بفتة ، فتسقط الصاعقة مطرا ونارا على الارض العطشى ؟ وتهطل الصاعقة لآلىء ماء على أغصان الشجر ، وتلطم عشب الحقول وتسحق الأزهار الطرية على الارض ، حتى اذا طلعت اولى أشعته انبعث الحياة في كل شيء من جديد ، وأخذ كل شيء يهمل للسماء ويرسل اليها بخوره المنعش ، ويعنى لها نشيد العرفان بالجميل ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن يدرك ما يجري في نفسه ، ولا يكاد يشعر بوجوده .

انتهت الصلاة أخيرا ، حتى دون أن ينتبه أوردينوف الى ذلك ، ورأى نفسه يسير في اثر المرأة المجهولة خلال الجمهور المتكاثف عند مخرج الكنيسة . فكانت المرأة الشابة المجهولة تلتفت اليه كلما أوقفها

الجمهور عن سيرها من لحظة الى لحظة • ان دهستها ما تنفك ترداد ،
وها هو ذا وجهها يصطبغ بالحمرة على حين فجأة •

وفى هذه اللحظة ظهر الشيخ الذى كان يرافقها بالأمس ، ظهر بين
الجمهور بفتة ، فأمسك بذراعها • والتقى أوردينوف من جديد بنظراته
الشذراء الساخرة ، فعض قلبه غضب غريب مفاجئ • واذ غابا عن بصره
فى الظلام ، اندفع بجهد عنيف فخرج من الكنيسة • ولكن الهواء الطرى
الذى كان يملأ جو المساء لم يستطع أن ينعشه • ان تنفسه يتقطع ويضعف ،
وان قلبه يخفق خفقانا بطيئا قويا حتى لكأنه يريد أن يشق صدره •
وأدرك أخيرا أنه ضيع صاحبيه المجهولين تماما ، فانه لم يرهما لا فى
الشارع ولا فى الزقاق الضيق • ولكن ها هى ذى فكرة خطة جريئة
غريبة تثبت فى ذهن أوردينوف ، فكرة مشروع من تلك المشاريع الجنونية
التي تكلم مع ذلك بالنجاح فى جميع الأحيان تقريبا •

ففى الساعة الثامنة من صباح الغد مضى أوردينوف يذهب الى منزلها
من جهة الزقاق الضيق ، فدخل فناء صغيرا قدرا يشبه أن يكون حفرة
لأوساخ العمارة •

كان البواب منهمكا فى عمل من الاعمال بالفناء ، فلما رأى أوردينوف
داخلا توقف عن العمل مسندا ذقنه الى ذراع مجرفته ، ناظرا الى
أوردينوف من رأسه الى قدميه ، ثم سأله عما يريد •

البواب فتى فى نحو العشرين من عمره ، ترى الأصل قصير القامة
له وجه شاخ قبل الأوان فهو منضن •

أجابه أوردينوف نائرا :

— أبحث عن مسكن •

فسأله البواب مبتسما ، وهو ينظر اليه نظرة من يعرف قصته كلها :
- أى مسكن ؟

فقال أوردينوف :

- أريد استئجار غرفة لدى جيران •

قال البواب بلهجة غريبة :

- ليس فى هذا الفناء غرفة للتأجير •

- وهنا ؟

- ولا هنا !

قال البواب ذلك وعاد يتناول معرفته •

قال أوردينوف وهو يدس فى يد البواب عشرة كويكات :

- لعلهم يؤجرونى غرفة مع ذلك •

فنظر التبرى الى أوردينوف ، ووضع النقود فى جيبه ، وعاد يتناول معرفته مرة أخرى ، ثم قال يكرر بعد صمت قصير انه ليس هنالك غرفة للتأجير •

ولكن الفتى كان قد كف عن الاصغاء اليه ، وأخذ يصعد الألواح العفنة الملقاة على بركة واسعة من الماء تفضى الى المدخل الوحيد الذى يوصل من هذا الفناء الى الجناح الاسود الوسخ الذى يشبه أن يكون غارقا فى هذا الماء الموحد •

كان يسكن فى الطابق الارضى من الجناح صانع توابيت فقير ، مرّ أوردينوف أمام ورشته ثم أخذ يصعد الى الطابق الأعلى على سلم لولبى

زليج • وعثر وهو يتلمس فى الظلام ، على باب كبير أعوج ، فأدار مزلاجه
وفتحه • لم يخطئ ، ظن أوردينوف • فها هو ذا المعجوز الذى يعرفه
أوردينوف واقفا أمامه يحدق اليه بنظرة ثابتة ودهشة شديدة •

قال المعجوز موجزا بما يشبه الوشوشة :

— ماذا تريد ؟

— أعندكم مسكن للتأجير ؟

بذلك أجاب أوردينوف ناسيا كل ما كان يريد أن يقوله تقريرا •

ومن وراء كتف الشيخ المعجوز ، لمح المرأة الشابة •

لم يجب الشيخ بشئ ، بل طفق يميند اغلاق الباب دافعا معه

أوردينوف •

فقالت المرأة الشابة ، فجأة ، بصوت رقيق عذب :

— عندنا غرفة •

فترك الشيخ الباب •

قال أوردينوف وهو يهرع داخلا فى البيت متجها الى الجميلة :

— أنا فى حاجة الى ركن ، أى ركن •

ولكنه لم يلبث أن توقف مدهوشا ، حتى ليشبهه أن يكون متجمدا ،
حين ألقى نظرة على هذين الشخصين اللذين سيسكن عندهما • كان يمر
أمام بصره مشهد صامت عجيب • ان وجه الشيخ ممتقع كوجه ميت • فمن
رآه حسب أنه مريض • وهو يلقي على المرأة نظرة من رصاص ، نظرة
ثقيلة ثابتة • والمرأة تشعب فى أول الأمر ، ولكن الدم ما يلبث أن يزدحم

فى وجهها ، وما تلبث عينها أن تسطعا بلمعان غريب • وها هى ذى تقود
أوردنيوف الى الغرفة الأخرى •

المنزل يتألف كله من حجرة واسعة يقسمها حاجزان الى ثلاثة
أقسام • فمن فسحة السلم يدخل المرء رأسا الى حجرة ضيقة مظلمة ،
فيواجهه الباب الذى يؤدى طبعاً الى غرفة أصحاب المنزل ، وعلى اليمين
غرفة للتأجير • انها غرفة ضيقة واطئة السقف ، لها نافذتان صغيرتان
واطئتان أيضاً ، تزدهم بأشياء شتى مما يوجد فى كل بيت • ولئن كانت
فقيرة طفيفة ، فهى نظيفة على قدر الامكان • أئانها لا يتعدى منضدة من
خشب أبيض وكرسين عاديين جدا ومقعدين ضيقين وضما فى جهتى
الغرفة على طول الجدار • وقد علقت فى الزاوية أيقونة كبيرة ذات تاج
مذهب ، يشتعل أمامها سراج • وهناك مدفأة روسية ضخمة غليظة يطل
نصفها على هذه الغرفة ويطل نصفها الآخر على حجرة المدخل •

واضح أنه ليس فى الامكان أن يعيش فى هذا المنزل ثلاثة
أشخاص •

بدأت المساومة على الأجر ولكن بغير تسلسل فى الأفكار ، حتى
لا يكاد يفهم بعض عن بعض شيئاً • وكان أوردنيوف يسمع خفقان قلب
المرأة الشابة وهو على بعد خطوتين منها • كان يرى انها ترتجف انفعالا ،
بل وخوفا • وتم الاتفاق على الأجر أخيراً • قال الفتى انه سيسكن فى
الغرفة فوراً ، ونظر الى صاحب المنزل • كان الشيخ واقفاً أمام الباب ،
لا يزال شاحب الوجه ، غير أن ابتسامته رقيقة بل وواجعة كانت تطوف
على شفتيه • فما ان التقى بنظر أوردنيوف حتى عاد يعبس مقطباً حاجبيه •
سأل الشيخ الفتى فجأةً بصوت عال وكلام موجز ، وهو يفتح باب
حجرة المدخل :

– أعندك جواز سفر؟

فأجابه الفتى بشيء من الدهشة :

– نعم •

قال الشيخ :

– من أنت؟

فأجاب الفتى بلهجة هي لهجة الشيخ نفسها :

– فاسيلي أوردينوف • متعلم • لا أعمل في مكان ، وإنما أهتم

بشئوني •

قال الشيخ :

– وأنا كذلك • اسمي ايليا مورين ، بورجوازي • هل يكفيك

هذا؟ هيا •••

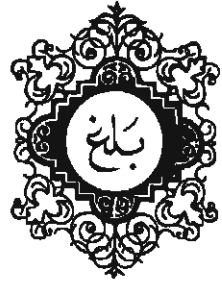
وما هي الا ساعة حتى كان أوردينوف في مسكنه الجديد • ولم

تقل دهشته من هذا التغير عن دهشة الألماني الذي كان قد أخذ يخشى هو

وابنته تينيشن أن يكون المستأجر الجديد قد دبر لهما مكيدة من المكائد •

أما أوردينوف فانه لم يكن يفهم كيف وقع هذا كله ، ولا كان يريد

أن يفهم •••



خفقان قلب أوردينوف من القوة أن بصره اضطرب
 ورأسه أصابه دوار • وأخذ أوردينوف يرتب
 أشياءه الضئيلة في مسكنه الجديد ذاهلا عن نفسه ،
 يعمل كما تعمل آلة • فض صرة تضم أشياء
 مختلفة ، ثم فتح صندوق كتب ففضد الكتب على الطاولة ، ولكن هذا العمل
 لم يلبث أن ثقل عليه • ان صورة المرأة الشابة التي هز لقاءها كيانه كله ،
 وبث فيه اضطرابا شديدا ، ما تنفك تسطح أمام عينيه ••• ان ايمانا كبيرا
 وحماسة لا تقاوم يدخلان الآن حياته ، بينما يخيم على أفكاره ظلام ،
 وتهوى نفسه الى القلق والاضطراب •

تناول جواز سفره ومضى يأخذه لصاحب البيت آملا أن يبصر المرأة
 الشابة • ولكن مورين لم يكده يشق الباب شقا ، فيتناول منه الورقة ،
 ويقول له « أرجو لك حياة هادئة » ، ثم يغلق الباب • ان شعورا مزعجا
 يعترى أوردينوف • ان رؤية هذا الشيخ تثقل على صدره ، لا يدري
 لماذا ! ان في نظرتة شيئا من احتقار ومن شر • ولكن الشعور المزعج لم

يلبت أن تبدد • ان اوردينوف يعيش منذ ثلاثة أيام فيما يشبه الزوبعة ، اذا قيست حياته الآن بحياة الهدوء التي كان يحياها من قبل ، ولكنه لا يستطيع ان يفكر ، بل هو يخشى أن يفكر • ان كل شيء قد اختلط واضطرب في وجوده • أحس احساسا مبهما بأن حياته قد انشطرت شطرين • فهناك الآن صبوة وحيدة ، هناك رنو وحيد استولى على كيانه كله ، فما من فكرة أخرى لها عليه سلطان •

عاد أوردينوف الى غرفته مدهوشا • وهناك ، قرب المدفأة ، حيث يهيا الطعام ، كانت تعمل امرأة عجوز قصيرة متفضنة • انها تبلغ من القدرة ، وان ملابسها تبلغ من الرثانة والوساخة ان منظرها يبعث الشفقة حقا • ولكن في وجهها خبثا وشرا ، وهي تدمدم بين أسنانها ببعض الكلام من حين الى حين • ان هذه العجوز هي خادمة أصحاب البيت • حاول أوردينوف أن يعقد معها حديثا ، ولكنها اعتصمت بالصمت ، عن مكر واضح • حتى اذا حانت ساعة الغداء أخرجت من المدفأة حساء كرنب وفطائر لحم فحملتهما الى أصحاب البيت ، ثم قدمت لأوردينوف هذا الطعام نفسه • وبعد الغداء ساد المنزل صمت كأنه صمت الموت •

تناول أوردينوف كتابا ، فظل يقلب صفحاته محاولا أن يفهم ماسبق ان قرأه مرارا دون أن يظفر بطائل ، فثارت ثائرتة ، فرمى الكتاب ، وعاد يحاول أن يضع أشياءه في مواضعها • ثم مشط شعره ، وتدثر بمعطفه ، وخرج •

ظل يضرب في خارج البيت على غير هدى ، لا يعرف الطريق الذي يسير فيه ، محاولا طوال الوقت أن يركز أفكاره المشتتة ما أمكن التركيز، وأن ينظر في وضعه قليلا • ولكن هذا الجهد لم يزد على أن سبب له عذابا • انه يشعر ببرد ثم يشعر بحر ، وان قلبه ليلين من شدة الحلقان في بعض اللحظات أنه يضطر الى الاتكاء على جداره • همس يقول محموم

الشفقتين مرتعشا دون أن يفكر فيما يقول : « لا ... الموت خير من هذا
... الموت أفضل من هذا ! » .

ولبت يمشى زمنا طويلا . فلما أحس أخيرا أنه ابتل حتى العظام ،
ولما لاحظ لأول مرة أن المطر كان يهطل غزيرا ، قفل راجعا الى البيت .

فحين أصبح على مقربة من البيت لمح البواب ، فبدا له أن الترى
يحدث اليه شيء من حب الاستطلاع ، ولكنه حين أدرك أن أوردينوف
يلاحظه تابع سيره .

قال له أوردينوف وقد لحق به :

- نهارك سعيد . ما اسمك ؟

فأجاب الترى كاشفا عن أسنانه :

- أنا بواب ، واسمى بواب .

- أأنت فى هذا المنزل منذ زمن طويل ؟

- نعم منذ زمن طويل .

- هل صاحب بيتى بورجوازى ؟

- هو بورجوازى اذا كان يقول ذلك .

- ماذا يعمل ؟

- انه مريض ، يعيش ، ويصلى ... هذا كل شيء ...

- وهذه المرأة زوجته ؟

- أى مرأة ؟

- المرأة التى تعيش معه ؟

— هي زوجته اذا كان يقول ذلك • وداعا يا سيدى !

قال الترى ذلك ملامسا طاقته ودخل بيته •

عاد أوردينوف الى مسكنه • فتحت له العجوز الباب وهي تتمم
بعض الكلام ، ثم أقفلته بالمزلاج ، ورجعت تستقر على المدفأة حيث تكمل
حياتها • كان الليل يهبط • مضى أوردينوف يعجى بنور ، فلاحظ أن باب
صاحبي البيت مقفل بالفتاح • نادى العجوز • كانت العجوز تحدد اليه
من فوق المدفأة مسندة رأسها الى كوعها وكأنها تتسائل ما عساه يستطيع
أن يفعل قرب القفل من غرفة صاحبي البيت • ودون أن تقول له شيئا ،
رمت اليه علبة كبريت •

رجع الى غرفته ، وأخذ للمرة المائة يرتب أشيائه وكتبه • ولكنه
شيئا فشيئا ، دون أن يدري ماذا يحدث له ، رأى نفسه يجلس على المقعد ،
وخيّل اليه أنه ينام • وكان يشوب الى نفسه فى بعض اللحظات ، فيدرك
أن نومه ليس نوما ، بل هو نوع من غيبوبة مرضية أليمة • سمع الباب
يُفتح ثم يغلاق • فقدر أنهما صاحبا البيت عائدان من صلاة الغروب • فخطر
بباله ان عليه أن يذهب اليهما ليحيا من عندهما بشيء • فنهض عن مكانه
يريد أن يذهب اليهما ، ولكنه ترنح وسقط على كومة من حطب كانت
المرأة العجوز قد ألقتها فى وسط الغرفة • وعندئذ أغمى عليه تماما •
فلما أفاق بعد فترة وفتح عينيه لاحظ مدهوشا أنه راقد على نفس المقعد
الطويل العتيق ، مرتد ثيابه كاملة ، وأن وجه امرأة بارع الجمال ، مبللا
بدموع عذبة حلوة كدموع أم ، كان يميل عليه حانيا عاطفا شديد الانتباه •
وشعر أن مخدة توضع تحت رأسه ، وأنه يُدثر بشيء دافئ ، وأن يدا
رقيقة تمسح جبينه المحترق • أراد أن يقول شكرا ، أراد أن يتناول هذم
اليد الرقيقة ، أن يقربها من شفثيه الجافتين ، أن يبللها بدموعه ، أن يقبلها

الى الأبد . . . أراد أن يقول أشياء كثيرة أيضا . . . ولكن ماذا ؟ انه لا يدري هو نفسه . أراد في تلك اللحظة أن يموت . . . كانت يدها كالرصاص ثقلا ، وظلنا ساكنتين جامدتين لا تتحركان . وخيّل اليه أنه أصبح أخرس . لكنه يحس بدمه يتدفق في جميع شرايينه تدفقا قويا كأنه يريد أن ينهضه عن مرقده . ناوله أحد ماء . . . ثم أغمى عليه .

استيقظ في الصباح ، في الساعة الثامنة من الصباح . كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية من خلال الزجاج الضارب الى الخضرة ، الوسنج ، زجاج نوافذ غرفته . ان احساسا عذبا يسرى في جميع أعضاء المريض . كان هادئا ساكنا سعيدا غاية السعادة . وخيّل اليه أن أحدا كان منذ برهة ساهرا عليه . استيقظ باحثا من حوله عن ذلك الانسان الذي لا يراه . كان يود لو يستطيع أن يعانق صديقا ، أن يقول لأول مرة «صباح الخير، صباح الخير ، يا صديقي ،»

قال صوت امرأة عذب رقيق :

– نمت نوما طويلا .

فاستدار أوردينوف . ان وجه الجارة الجميلة يتسم ابتسامة فاتنة ، مضيئة كالشمس ، ويميل عليه .

قالت :

– طال مرضك . كفاك هذا . انهض الآن . لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب ؟ ان الحرية أشهى من الخبز ، وأبهى من الشمس . انهض يا صديقي انهض . . .

تناول أوردينوف يدها ، وشد عليها شدا قويا . خيّل اليه أنه ما يزال يحلم .

- انتظر • لقد أعددت لك شايًا • هل تريد قليلا من الشاي؟ اشرب شيئا من الشاي • سيفعلك شرب الشاي • أعرف هذا ، فقد مرضت أنا أيضا •

- نعم نعم ، اسقني شيئا •

كذلك قال أوردنوف بصوت منطفيء •

ونفض • كان لا يزال ضعيفا جدا • ان قشعريرة تسرى في ظهره •
وانه يحس بأوجاع في جميع أعضائه ، كأن جميع أعضائه مكسرة محطمة •
غير أن في قلبه نورا ، وأشعة الشمس تنعشه وتبث في روحه فرحا رائعا •
انه يشعر أن حياة جديدة ، قوية ، خفية عن الأبصار قد بدأت فيه •
وكان يشعر بشيء من دوار •

قالت المرأة الشابة :

- هل اسمك فاسيلي ؟ لعننى أخطأت السمع ، ولكن رب الدار سماك بهذا الاسم أمس •

- نعم ، فاسيلي • وأنت ما اسمك ؟

قال أوردنوف ذلك وهو يقترب منها ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه •

وترنح ، فأمسكته من يده وضحكت ، ثم قالت له وهي تحديق على عينيه بعينها الزرقاوين الصافيتين :

- أنا ؟ كاترين •

وتماسكا يدا ييد •

سألته أخيرا :

- هل تريد أن تقول لى شيئا ؟

فأجابها أوردينوف بقوله :

- لا أدرى •

واظلم بصره •

- ألا ترى الحالة التى أنت فيها ؟ •• حسبك هذا يا طائرى ،

حسبك • لا تعذب نفسك مزيدا من التعذيب • اقعدهنا ، أمام المنضدة ،

قبالة الشمس • امكث هنا هادئا ، ولا تبغى (أضافت قولها هذا اذ لاحظت

أن الفتى يهم أن يتحرك ليمسك بها) • سأعود فورا • سترانى كثيرا •

وعادت بعد دقيقة تحمل الشاى ، فوضعت الشاى على المائدة ، وقعدت

أمام أوردينوف •

قالت :

- خذ • اشرب • هل بك صداع ؟

- لا • زال الصداع الآن • لا أدرى • قد يكون بى صداع •

لا أريد ••• كفى كفى ! لا أعرف ما الذى بى •

قال ذلك مضطربا أشد الاضطراب بعد أن استطاع أخيرا أن يتناول

يد كاترين ••• وأضاف يقول لاهنا من فرط الحماسة ، وكأنه ينتزع

كلامه من قلبه ، بينما يملأ الشئج حلقه :

- على عينى غشاوة ••• عيناي مبهورتان ••• اننى أنظر اليك

نظرتى الى الشمس •

- يا صديقى ، أنت اذن لم تعش فى كنف انسان شهم • أنت

وحيد ، وحيد • أليس لك أقرباء ؟

— ليس لى أحد • أنا وحيد • ليس لى أحد • آ • • • • تحسنت حالى
الآن • أنا الآن بخير •

قال أوردینوف ذلك هاذيا ، وكان يرى العرقة تدور من حوله •

قالت بعد لحظة صمت :

— أنا أيضا ظلمت وحيدة عدة سنين • ما أغرب نظرتك الى آ • • • •

— ماذا فى نظرتى ؟

— انك تنظر الى نظرة من تحييه رؤيتى وتبث الدفء فى قلبه !

هل تعلم ؟ انك تنظر الى نظرة من يشعر بحب • • • • أما أنا فقد خفق

قلبى لك منذ أول كلمة • اذا مرضت فسوف أعنى بك • ولكن لا تمرض •

لا لا ، حين ستشفى من مرضك سنعيش أختا وأختا • هل تريد ؟ صعب

أن يصبح للمرء أخت اذا لم يكن الرب قد وهب له أختا • •

قال أوردینوف بصوت واهن :

— من أنت ؟ من أين أنت ؟

— أنا لست من هنا ! ولكن فيم يعنك هذا ؟ هل تعلم ؟ يُحكى أن

اتنى عشر أختا كانوا يعيشون فى غابة مظلمة • • • • وحدث أن ضلت فتاة

فى هذه الغابة • • • • فوصلت الى منزلهم ، فرتبت كل شىء فيه ، وشملتهم

يحبها جميعا • عاد الاخوة ، فعرفوا أن أختا مرت بمنزلهم فى النهار • •

نادوها • جاءت اليهم • سموها جميعهم أختا • فكانت لا تفرق بينهم ، بل

تعاملهم معاملة واحدة • هل تعرف هذه الحكاية ؟

أجاب أوردینوف بصوت خافت :

— نعم أعرفها •

- الحياة متعة • أيسرك أن تحيا ؟

- نعم نعم •• أن أحيا طويلا •• طويلا ••

كذلك أجاب أوردينوف • فقالت كاترين ساهمة :

- لا أدري • انى أتمنى الموت أيضا • الحياة متعة ••• ولكن •••

أواه ! ما لوجهك يشحب لونه من جديد ؟

- بى دوار !

- انتظر • سأجيئك بفراشى • انه خير من هذا • وسأجيئك بمخدة

أخرى ، وسأهين سريرك • وسوف تنام ، فترانى فى نومك ، فيذهب

مرضك ••• عجزوتنا مريضة هى أيضا •••

كانت تقول هذا الكلام وهى تهين السرير ، وتلقى من فوق كنفها

نظرة على أوردينوف من حين الى حين •

قالت وهى تدفع صندوق الكتب :

- عندك كتب •

واقتربت من أوردينوف ، فتناولت يده اليمنى ، وقادته نحو

السرير ، فأضعفته ، وأحاطت به • قالت وهى تهز رأسها واجمة ساهمة :

- هل تحب قراءة الكتب ؟

- نعم •

قال أوردينوف ذلك وهو لا يدرى أنائم هو أم يقظ ، قال ذلك •

وهو يشد على يد كاترين شدا قويا ليتحقق من أنه ليس بنائم :

- عند سيدى كتب كثيرة أيضا • يقول انها كتب رائعة • انه يقرأ

لى دائما فى أحد هذه الكتب • سأريك هذا الكتاب بعد ، فنقول لى ماذا
فيه ...

- نعم سأقول لك ...

قال أوردينوف ذلك وهو يتفرس فيها •

سألته بعد صمت قصير :

- هل تحب الصلاة ؟ أتعلم ؟ اتنى أشعر بخوف ، أشعر بخوف من

كل شىء ، دائما ...

لم تكمل كاترين جملتها ، ولاح عليها أنها تفكر فى شىء ما •

حمل أوردينوف يدها الى شفتيه •

- لماذا تقبل يدي ؟

قالت ذلك وقد احمر خذاها قليلا •

ثم أضافت ضاحكة وهى تمد اليه يديها كلتيهما :

- هيا ... قبلهما •

ثم سحبت احديهما ووضعتهما على جبينه المحترق • ثم أخذت تلاعب
شعره • ان حمرة وجهها تشتد • وأخيرا قعدت على الأرض قرب السرير •
وأسندت خذاها على خد الفتى • ان أنفاسها الحررى تهب على وجهه ...
وشعر أوردينوف فجأة بدموع سخية تسقط على خده ثقيلة
كالرصاص • كانت كاترين تبكى • أخذ أوردينوف يزداد ضعفا ووهنا •
أصبح منذ الآن لا يستطيع أن يرفع يديه • وفى هذه اللحظة دوت
خربة فى الباب • وصرّ المزلاج • استطاع أوردينوف أن يميّز صوت

رب المنزل آتيا من الغرفة المجاورة • ثم سمع كاترين تنهض فتساول كتابها دون تعجل ودون اصغاء ، ورآها بعد ذلك ترسم عليه اشارة الصليب وهي تصرف • أغمض عينيه • وفجأة أحس بقبلة حارة طويلة تحرق سفتيه ، وشعر كأن طعنة سكين تنفذ فى قلبه • أطلق صرخة ضعيفة ، ثم أغمى عليه •

بعدئذ بدأت بالنسبة اليه حياة غريبة عجيبة •

ففى بعض اللحظات ينبع فى فكره شعور غامض مبهم بأنه قد حُكم عليه أن يعيش حلما طويلا لا نهاية له ، مليئا باضطرابات غريبة وصراعات وآلام عقيمة ؛ فيشعر بذعر شديد ، ويحاول أن يتمرد وأن يشور على هذا القدر الذى ينقل صدره • ولكن حين يبلغ الصراع أشد لحظاته حدة وضراوة ، يحس بقوة مجهولة تضربه من جديد ، فيدرك ادراكا واضحا كيف أنه يفقد ذاكرته مرة أخرى ، وكيف أن ظلما رهيبا ، لا مخرج منه ، ينتشر أمامه من جديد ، فيندفع اليه صارخا صرخة قلق ويأس • وفى لحظات أخرى يشعر بسعادة عنيفة مسرقة فى العنف ، سعادة ساحقة ؛ يحدث ذلك حين تزداد الحيوية فى الكيان الانسانى كله الى غير حد ، حين يصبح الماضى أوضح وترجع أصداء انتصار الفرح ، حين يحلم المرء بمستقبل مجهول ، حين يهبط على النفس أمل رائع كالندى المنس ، حين يشتهي المرء أن يصرخ من فرط الحماسة ، حين يحس أن الجسد عاجز أمام كثرة الأحاسيس وغزاتها ووفرتها ، حين ينقطع خيط الوجود ويعلمو فى الوقت نفسه هتاف التهليل لانبعات الحياة الجديدة •

وكان أوردينوف يرتد فى لحظات أخرى الى خدره ، وعندئذ فان كل ما حدث له فى الأيام الأخيرة يمر فى خاطره من جديد مرور زوبعة • ولكن المنظر يعرض له حينذاك فى مظهر غريب سرى •

وكان فى بعض الأحيان ينسى أثناء مرضه ما حدث له ، ويستغرب أن لا يجد نفسه فى مسكنه القديم عند صاحبة البيت القديمة ؛ ويدهشه أن لا يرى العجوز تقرب ، كما اعتادت أن تفعل ذلك دائما ، من المدفأة شبه المنطفئة التى تير بضياؤها الضعيف المهتز المترجح كل الركن المظلم من الغرفة ، وأنها لا تدفىء يديها المعروقتين المرتجفتين على الموقد الذى خبت ناره ، كما ألفت أن تفعل ذلك دائما ، ملقياً من حين الى حين نظرة دهشة على نزيلها العجيب الذى كانت تعده مجنونا بعض الشيء من طول ما يكب على القراءة •

وكان فى لحظات أخرى يتذكر أنه أبداً مسكنه ، ولكن كيف تم ذلك ؟ انه لا يدري كيف تم ذلك ، رغم كل ما يبذله من جهود عنيفة عنيدة فى سبيل أن يفهمه ••• أما أين وماذا وما هذا الذى يعذبه ويلقى فى نفسه هذه النار التى لا تطاق ، هذا اللهب الذى يخنقه ويحرق دمه فذلك ما لم يكن فى امكانه أن يعرفه • وها هو ذا يعود الى النسيان من جديد ، فلا يتذكر شيئاً البتة • وكثيرا ما كان يقبض قبضا شرها على طيف من الأطياف • وكثيرا ما كان يسمع وقع خطوات خفيفة قرب سريره ، ودمدمة أصوات عذبة مهددة رقيقة كأنها موسيقى • وهذه أنفاس لاهثة رطبة تمر على وجهه ، فيهتز كيانه كله حبا • وهذه دموع محرقة تسيل على خديه الملتهين ، وهذه قيلة طويلة رقيقة تنصب فجأة على شفتيه • ان حياته كلها تنطفىء عندئذ فى عذاب لا نهاية له ؛ ويبدو له أن الوجود كله ، والكون كله يتوقفان من حوله ، يموتان من حوله قرونا برمتها ، وأن ليلا طوله ألف سنة يمتد عليه •••

وهو فى بعض الأحيان يعيش مرة أخرى السنين الحلوة من طفولته الأولى ، بأفراحها الصافية وسعادتها التى لا حدود لها ، بأولى مشاعر

الدهشة الفرحة ، بجمهرة الأرواح المضيئة تخرج من كل زهرة يقطفها ،
وتمضى تلعب معه فى السهل الأخضر العشب أمام البيت الصغير الذى
تحيط به أشجار الأكاسيا ويتسم له عند بحيرة البلور التى يقضى على
شاطئها ساعات طويلة مصغيا الى خرير أمواجها ؛ ومصيخا بسمعه كذلك
الى اصطفاق أجنحة تلك الأرواح التى تنشر على مهده الصغير أحلاما
زاهية الالوان كقوس قزح بينما تكون أمه ، الحانية على هذا السرير ،
قبله وتوأمه مغنية له أغنية حلوة عذبة حلوة فى الليلي الهادئة الساكنة .
ولكن انسانا يظهر له من جديد فيقلقه أشد القلق ويرعبه بفرع ليس كفرع
الأطفال ، ويسكب فى نفسه أول سم بطيء من سموم الألم والدموع . انه
يشعر شعورا مبهما بأن الشيخ المجهول يقبض بسلطانه على جميع سنينه
المقبلة ، فما هو ذا يرتعش أمامه ولا يستطيع أن يحول عنه بصره . ان
الشيخ الحليث الشريير يلاحقه فى كل مكان ويطارده أينما يذهب . يظهر له
ويطل عليه ويهدده برأسه من فوق كل دغل فى الغابة الصغيرة . يضحك
مقهقها ويعاكسه ويناكده ؛ يتجسد فى كل دمية من الدمى التى كان يلعب
بها ابان طفولته ؛ يكثر له ، ينفجر ضاحكا فى يديه ، كجنى خيبت
شريير من الجن التى تسكن جوف الأرض . ينبثق من كل كلمة من
كلمات كتاب النحو الذى يقرأ الصبى سطوره ، ينبثق مصعرا وجهه عن
أسنانه . . . فاذا نام الصبى جلس الشيخ قرب سريره . . . يطرد أسراب
الأرواح المضيئة التى ترفرف حول مهده بأجنحتها التى هى من ذهب
وياقوت . وهو يدفع عنه ، الى الأبد ، أمه المسكينة ؛ ويظل ليلة بكاملها
يهمس له بقصة رائمة لا يفهمها قلب طفل ، ولكنها تبث فيه اضطرابا ورعبا
وهولا ، وتشعل قلبه بهوى جامح كيس كهوى الأطفال . والشيخ الشريير
لا يسمع نحيبه ونشيجه ، ولا يصفى الى رجائه ودعائه ، ويمضى يحدثه
ثم يحدثه الى أن يغفى عليه .

ويستيقظ الطفل رجلاً • لقد انقضت سنين طويلة دون أن يدرك ذلك • وفجأة يعرف وضعه على حقيقته ، ويفهم أنه وحيد وغريب عن الكون كله • وحيد بين أناس أشرار ، أناس مقلقين ، أعداء يتجمعون ويتهايمسون في أركان غرفته المظلمة ، ويومثون برؤوسهم الى المعجوز القاعدة قرب النار تدفئ يديها الواهيتين المعجوازين ، وتومئ هي لهم اليه • ان نفسه مضطربة أشد الاضطراب ، يريد أن يعرف ما هؤلاء الناس ، ولماذا هم هنالك ، ولماذا هو في غرفته • ويقدر أنه وقع في مغارة لصوص من قطاع الطرق ، وأن قوة جبارة مجهولة هي التي قادت به هذه المغارة ، قبل أن يفحص هؤلاء السكان وهؤلاء الناس • تستبد به الحشية منذ الآن • وفجأة ، في وسط الليل ، في الظلام ، يعود يسمع القصة الطويلة بصوت خافت • هي امرأة عجوز تتكلم برفق ، هازئة رأسها الأبيض على حزن ، أمام النار التي تنطفئ • ويقبض عليه الهول والرعب من جديد • الحكاية تشد حميمًا أمامه ، وهذه وجوه وصور تتضح لبصره • وهذا هو يرى أن كل شيء ، تهاويله المبهمة في أيام طفولته ، أفكاره وأحلامه جميعها ، ما عرفه من الحياة كلها ، ما قرأه في الكتب كافة ، ما نسيه منذ زمن بعيد ، ذلك كله ينبعث الآن ويتجسد وينتصب أمامه صوراً ضخمة ، ويسير ويرقص حلقة حوله • جنائن بديعة تنبت أمام بصره ، مدن برمتها تتهاوى خرائب وركاما ، مقابر ترد اليه موتاها أحياء يسعون • أمم وشعوب بأسرها تظهر وتكبر وتموت على مرأى منه • كل فكرة وكل حلم يتجسد الآن حول سريره ، سرير المريض ، تجسده حين ولد ؛ فهو لا يحلم الآن بمكان من غير لحم ودم ، بل بعوالم بأسرها • وهو نفسه الآن يجرفه اعصار ، كذرة غبار ، في هذا العالم اللانهائي ، هذا العالم الغريب ، الذي لا مخرج له • وهذه الحياة كلها ، باستقلالها

التمرد ، تدفعه دفعا ، وتلاحقه بسخريتها الأبدية الحفود التي لا يشفى لها غليل •

أحس أنه يموت ، أنه يتهاوى ترابا ، الى الأبد ، بغير انبعاث ممكن • أراد أن يهرب ، ولكن ليس فى الكون كله ركن يخشى فيه • ويستولى عليه أخيرا زعر رهيب ، فيصرخ ، ويستيقظ •••

ان عرقا باردا كالثلج يغطى جسمه • ومن حوله يخيم سكون كسكون الموت فى ليل عميق • ومع ذلك يتراعى له أن حكايته العجيبه ما تزال مستمرة فى مكان ما ؛ وأن صوتا أجش يشرع فى حديث طويل عن الموضوع الذى يعرفه • انه يسمع كلاما عن غابات مظلمة ، ولصوص خارقين ، وعن فتى باسل شجاع يشبه أن يكون ستكا رازين* نفسه ، وعن سكارى مرجين فرحين ، وعن رجال يعبرون المراكب ، وعن فتاة جميلة ، وعن نهر الفولجا • أهذا حلم ؟ أهو يسمع هذا حقا ؟

وظل راقدا مدة ساعة ، مفتوح العينين ، لا يحرك عضوا ، غارقا فى خدر رهيب • وأخيرا نهض محاذرا ، فأدرك على فرح أن المرض الفظيع لم يجهز على جميع قواه • تبدد الهذيان • وبدأ الواقع •

لاحظ أنه ما يزال مرتديا ثيابه كما كان أثناء حديثه مع كاترين ، فقدّر أنه لم ينقض اذن وقت طويل على تركها اياه • ان نار العزيمة تجرى فى عروقه • وانه لكذلك اذا بيده تلمس ، عرضا ، مسمارا كبيرا مغروزا فى الحاجز الذى وُضع سريره حذاءه • أمسك المسمار وتعلق به بكل جسمه ، فوصل بذلك الى شق يتسلل منه الى غرفته شعاع ضئيل من نور • وضع عينه على هذا الشق ، وحبس أنفاسه ، وأخذ ينظر •

فى ركن من الغرفة الصغيرة التى يسكنها صاحب البيت ، كان هنالك

سرير ، وأمام السرير مائدة فُرشت بسجادة • وعلى المائدة كتب كثيرة من حجم كبير وشكل قديم ، كتب مجلدة تذكر بكتب الطقوس الدينية • وفي زاوية من الزوايا أيقونة معلقة لا تقل قدما عن الغرفة ، وأمام الأيقونة سراج مشتعل • كان الشيخ مورين ، المريض ، راقدا على السرير • كان يبدو عليه أنه يعاني آلاما شديدة • انه شاحب شحوب ميت • وكان مدنوا بغطاء من فراء ؛ وعلى ركبته كتاب مفتوح • وكانت كاترين مستلقية على مقعد قرب السرير ، محيطة صدر الشيخ باحدى ذراعيها ، مسندة رأسها على كتفه • كانت تحديق اليه بعينين متبهرتين ، طفوليتين ، مدهوشتين ، وتبدو مصغية بشراة شديدة ونهم غريب الى ما كان يقصه عليها مورين • وفي بعض اللحظات يعلو صوت القصص ، ويتعش وجهه الشاحب ، ويتقطب حاجباه ، وتسطع عيناه ، فيصفر وجه كاترين خوفا وانفعالا ، فيظهر في وجه الشيخ عندئذ شيء يشبه الابتسام ، فاذا بكاترين تأخذ بتسم في هدوء ورفق هي أيضا • وترقرق في عينيها دموع أحيانا • فيأخذ الشيخ يلاعب رأسها عندئذ كما يلاعب رأس طفلة ، فتعانهه بمزيد من القوة بذراعيها العارية الناصعة كالثلج ؛ وبمزيد من الحب أيضا تميل على صدره •

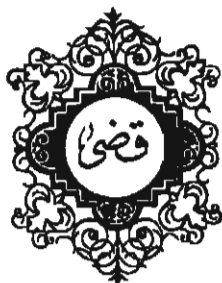
تساءل أوردينوف أليس ما يراه الآن تنمة حلمه ؟ بل لقد أيقن من ذلك • غير أن دمه ازدحم في رأسه ، وأخذت شرايينه وصدغاه تنبض نبضا يبلغ من القوة أنه أوجعه •

أرخی المسمار ، ونزل عن السرير ، وتقدم يسير مترنحا كمن يمشى في نومه ، لا يفهم هذا الاهتياج الذي اشتعل كحريق في دمه • فلما وصل الى باب غرفة رب المنزل دفعه دفعا قويا عنيفا ، فسقط المزلاج

الصدى ؟ وفى غمار هذه الجلبة وهذه الضجة وجد أوردینوف نفسه فى
وسط الغرفة •

ورأى أوردینوف كيف ارتعشت كاترين فجأة ، وكيف التمت عينا
الشيخ تحت حاجبيه العاسين المقطعين التماعا شريرا ، وكيف شوّه الخلق
والفيظ وجهه تشويها على حين بفتة • ثم اذا بالشيخ يتناول بيده المرتجفة
البندقية المعلقة بالجدار ، فيرى أوردینوف أنبوبها ساطعا تسدده الى صدره
يد مترددة راعشة غضبا • • وتطلق الطلقة • • فتجاوبها صرخة وحشية
لا يكاد يكون فيها شيء انساني • • حتى اذا تبدد الدخان ، رأى أوردینوف
منظرا مروعا فظيما •

أخذ جسم أوردینوف يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ،
ومال على الشيخ المتهاوى على الأرض وقد تشنج وجهه وأخذ الزيد يخرج
من بين شفثيه المكشرتين • أدرك أوردینوف أن الشيخ المسكين قد اتابته
نوبة صرعة • فهب يسعفه مع كاترين •



أوردينوف ليلة سيئة • فلما طلع الصباح خرج
من المنزل رغم ضعفه ورغم الحمى التي لم تزاوله •
فالتقى في الفناء بالبواب مرة أخرى • ما ان رآه
الترى من بعيد حتى نزع قبعته يحييه ، وينظر

اليه مستطلما ؟ ثم لم يلبث أن تناول مكنته ، وأخذ يكنس الأرض ملقيا
من حين الى حين نظرة سريعة على أوردينوف الذي كان مقبلا بخطى
بطيئة •

سأله أوردينوف :

– هيه ! ألم تسمع شيئا هذه الليلة ؟

– بلى ! سمعت •

– ما هذا الرجل ؟ من هو ؟

– أنت استأجرت ، فأنت تعرف • أما أنا فأجني •

فصاح أوردينوف خارجا عن طوره وقد استبد به هياج مرضى :

– أتراك ستتكلم في يوم من الأيام ؟

قال البواب :

- ولكن ماذا فعلت أنا؟ انها خطيبتك • أنت أرعبتهم • صانع التواييت ، تحت ، أطرش • ومع ذلك سمع كل شيء • وامراته ، وهي طرشاء ، سمعت كل شيء أيضا • وحتى في الفناء الثاني ، البعيد مع ذلك ، سمع كل شيء • هذا ما وقع ••• سأذهب الى مفوض الشرطة •
- بل أذهب اليه أنا •

قال أوردينوف ذلك واتجه نحو باب الفناء •

- لك ما تشاء ••• ولكنك أنت الذى استأجرت ! سيدى ، سيدى !
انتظر !•••

نظر أوردينوف الى البواب الذى لمس طاقيته احتراماً •

سأله أوردينوف :

- ماذا ؟

- اذا كنت ذاهبا الى مفوض الشرطة ، فسأخبر المالك •••

- ثم ؟

- الأفضل أن تغادر هذا المنزل •

- ما أنت الا غيبى أحقق !

أراد أوردينوف أن ينصرف •

- سيدى ! سيدى !

كذلك هتف البواب وهو يضع يده مرة أخرى على طاقيته ، ويظهر أسنانه ابتساما من قبيل التودد • وأردف يقول :

- سيدى ! لماذا طردت انسانا مسكينا ؟ ان طرد انسان مسكين اثم
لا يرضى عنه الرب *

- اسمع ... خذ هذا ... من هو هذا الرجل ؟

- من هو ؟

- نعم *

- سأقول لك من هو ، حتى دون أن تنقدنى مالا *

تناول البواب مقشته ، فكنس بها كنستين ، ثم توقف ، فنظر الى
أوردنيوف بانتباه مصطنعا خطورة الشأن :

- أنت طيب ياسيدى ، ولكن اذا كنت لا تريد أن تعيش مع انسان
صالح ، فلك ما تشاء ... ذلك ما أقوله لك ...

قال الترى ذلك وألقى على أوردنيوف نظرة تفيض بمزيد من
التعير ، ثم طفق يكنس كأنه غاضب * وأخيرا اصطنع هيئة من أنجز أمرا
هاما ، اقترب من أوردنيوف كمن يريد أن يفضى اليه بسر ، وقال معبرا
بحركة من وجهه :

- هو هكذا ! ..

- ماذا ؟ ما معنى هذا ؟

- ليس له عقل !

... ماذا ؟

- نعم * ذهب عقله *

كذلك ردّد الترى بלהجة فيها مزيد من السر أيضا * ثم أضاف :

- انه مريض • كان يملك سفينة كبرى ، وسفينة ثانية ، وثالثة •
كان يطوف نهر الفولجا • أنا من الفولجا • وكان يملك مصنعا أيضا •
ولكن الحريق التهم كل شيء • ففقد الرجل عقله •••

- أهو مجنون ؟

قال الترى ببطء :

- لا •• لا •• ليس بمجنون •• هو انسان روحانى •• يعرف
كل شيء •• قرأ كتبا كثيرة •• وهو يتبأ للناس بالحقيقة كاملة : يجيئه
أحدهم ، فينقده روبلين ، ويجيئه آخر فينقده ثلاثة روبلات ، أو أربعين
روبلا ، فيقرأ هو فى الكتاب فيرى الحقيقة كلها • ولكن على شرط أن
توضع الدراهم فوق المائدة ، أما بدون دراهم ، فلا شيء •

وهنا أطلق الترى ضحكة فرحة ، بعد أن أوغل فى الكلام على
شئون مورين •

قال أوردينوف :

- ماذا ؟ أهو اذن ساحر ؟

قال البواب وهو يهز رأسه :

- هم •• انه يقول الحقيقة • انه يصلى •• يصلى كثيرا •• وأحيانا
تصبيه لوثة •••

وكرر الترى حركة رأسه المعبّرة •

وفى هذه اللحظة نادى أحدهم البواب فى الفناء الآخر ، ثم ظهر
شيخ قصير القامة يرتدى معطفا من جلد الخروف • كان الشيخ يسير

بخطى مترددة وهو يتحنح مطرقا الى الأرض مدمدا ببعض الكلام • كان
الشيخ القصير يبدو مرتدا الى الطفولة •

– المالك ، المالك !

كذلك همس البواب بسرعة ، وأوماً لأوردينوف بحركة طفيفة من
رأسه ، ثم اندفع مقبلا على الشيخ خالما طاقيته •

خيّل الى أوردينوف أنه سبق أن رأى هذا الوجه منذ فترة قصيرة
فى مكان ما • ولكنه اذ لم ير فى ذلك ما يستغرب ، خرج من الفناء ،
وهو يشعر أن هذا البواب رجل وغد دنىء من أحقر طراز • قال لنفسه:
« يا للنذل ! انه يساومنى ••• الله يعلم ماذا يجرى هنا ! » •

حين قال أوردينوف هذه الكلمات كان قد وصل الى الشارع •
وشيئا فشيئا احتكرت ذهنه أفكار أخرى • ان نفسه تفيض بمشاعر أليمة •
النهار أشهب بارد • الثلج يتساقط • وأحس الفتى بالحصى تنهشه من
جديد • كان يشعر أيضا بأن الأرض تسفل تحت قدميه • وفجأة سمع
صوتا معروفا له ، صوتا من مقام التينور متصنع العذوبة ، مرتجفا ، مزعجا ،
يحييه قائلا : نهارك سعيد •

هتف أوردينوف :

– ياروسلاف ايلتشس * !

كان أمام أوردينوف رجل فى نحو الثلاثين من العمر ، قوى البنية
أحمر الحديدين مربع القامة له عيان صغيرتان مخضلتان ، شهبوان ،
باسمتان •• يرتدى •• ما يرتديه ياروسلاف ايلتشس دائما • وهذا هو
يمد يده لأوردينوف بتودد كبير •

كان أوردينوف قد عرف ياروسلاف ايلتش منذ سنة على وجه الضبط، معرفة عارضة تماما ، فى الشارع تقريبا . ومما سهّل هذا التعارف ، عدا المصادفة ، ما يتصف به ياروسلاف ايلتش من ميل قوى الى البحث فى كل مكان عن أناس طيبين نبلاء ، مثقفين خاصة ، تجعلهم مواهبهم وآدابهم على الأقل ، جديرين بالانتماء الى المجتمع الراقى . ورغم أن ياروسلاف ايلتش قد وهب له صوت من مقام التينور متصنع العذوبة جدا ، حتى فى حديثه مع الحميمين من أصدقائه ، فلقد كان ينبعث فى صوته شئ خارق الوضوح ، قوى ، يفرض نفسه ، ولا يطبق أية معارضة ، ولعله ليس الا ثمرة العادة .

صاح ياروسلاف ايلتش يقول فرحا أشد الفرح متحمسا أصدق الحماسة :

- كيف ؟ ماذا جاء بك الى هنا ؟

فقال أوردينوف :

- اننى أسكن فى هذه الجهة .

فتابع ياروسلاف ايلتش يسأل بلهجة ماتنفك تملو مزيدا من الطلو :

- منذ زمن طويل ؟ ثم لا أعلم أنا بذلك ؟ ... نحن اذن جيران .

اننى أعمل هنا ، فى هذه الدائرة . عدت من اقليم ريزان منذ شهر .
ها ... لقد قبضت عليك يا صديقى القديم النيل !

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وانفجر يطلق ضحكة لطيفة أنيسة .

ثم صاح منتفخا يخاطب شخصا آخر :

- سيرجيف ! انتظرى عند تاراسوف ، وقل لهم ان لا يمسموا

أكياس القمح قبل وصولي ... واشحد همة بواب أولسوفيف قليلا .
مره أن يأتي الى المكتب فورا . سأكون في المكتب بعد ساعة ...

فلما انتهى ياروسلاف الرقيق من اصدار أمره هذا مسرعا ، تأبط
ذراع أوردينوف وقاده الى أقرب مطعم . قال :

– لن أكون راضيا قبل أن تتبادل بضع كلمات على انفراد ، بعد
فراق طويل كل هذا الطول .

وأضاف بلهجة تشبه أن تكون احتراما وهو يخفض صوته خفضا
غريبا :

– ماذا تعمل الآن ؟ أما زلت تعمل في العلوم ؟

أجاب أوردينوف وقد راودته فكرة طيبة جدا :

– نعم ، كما كنت دائما .

فقال ياروسلاف ايلتش وهو يصافح أوردينوف بقوة :

– هذا عظيم يا فاسيلي ميخائيلوفتش ، هذا نبيل . ستكون زينة
جماعتنا ... أسأل الله أن يفرش طريقك بالسعادة ! رباه ! ما أشد
سعادتي بلفائك ! لطالما فكرت فيك ! لطالما قلت لنفسى : أين صديقنا الطيب
النبيل الروحاني فاسيلي ميخائيلوفتش ؟

قعد الرجلان في حجرة خاصة بالمطعم . أمر ياروسلاف ايلتش
بمشهيات ومقبلات ، وأمر بخمرة ، ونظر الى أوردينوف منفعلا كل
الانفعال ؛ ثم بدأ يقول بصوت خجول ، صوت فيه شيء من المداراة
والمراعاة :

– لقد قرأت كثيرا منذئذ . قرأت بوشكين كله .

كان أوردينوف ينظر إليه ذاهلا •

أضاف ياروسلاف ايلتشى :

- ما أروع وصفه لأهواء الانسان • ولكن اسمح لي قبل كل شيء
أن أعرب لك عن شكرى وامتنانى • لقد أحسنت الى احسانا كبيرا بنبل
الهامك ، وروعة أفكارك •••

- العفو •••

- لا •• اسمح لي •• أنا أحب الانصاف • واتنى لفخور بأن هذا
الشعور على الأقل لم ينطفىء فى نفسى •

- العفو •• أنت لا تنصف نفسك ! أما أنا فالحقيقة أنى •••

- لا بل انى منصف تماما • ماذا أنا بالقياس اليك ؟

كذلك اعترض ياروسلاف ايلتشى بحرارة شديدة •

- العفو •••

- نعم •••

وأعقب ذلك صمت •

واستأنف ياروسلاف ايلتشى يقول بلهجة خجولة مادحة :

- لقد انتفعت بنصائحك فقطعت صلاتى بكثير من الأشخاص التافهين •
وأنا أقضى فى المنزل أكثر أوقات الفراغ التى يدعها لي عملى فى الوظيفة •
فأقرأ فى المساء ، أقرأ كتابا جييدا ، و ••• ليس لي من رغبة يا فاسيلي
ميخائيلوفتشى الا أن أكون نافعا لوطنى بعض النفع •••

- لقد عددتك دائما انسانا نبيلًا جدا يا عزيزى ياروسلاف ايلتشى •

– ستظل أنت العطر الفواح ... أيها الشاب النبيل •

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وهو يشد على يد أوردنوف شدا قويا •

ثم أضاف يلاحظ بعد أن هدأ بعض الهدوء :

– أراك لا تشرب •

– لا أستطيع • أنا مريض •

– مريض ؟ أجد ما تقول ؟ أمتد زمن طويل ؟ كيف مرضت ؟

هل تريد أن أقول لك ... أى طيب يعالجك ؟ هل تريد أن أخبر طبيينا ؟

سأذهب اليه بنفسى • انه حاذق جدا ...

لم يقل ياروسلاف ايلتش ذلك الا وكان قد تناول قبعته يهيم أن

ينهض للبحث عن الطيب •

قال أوردنوف :

– لا ... شكرا • ليس يعالجنى طيب ، أنا لا أحب الاطباء ...

قال ياروسلاف ايلتش متوسلا :

– ما هذا الذى تقول ؟ أهذا الكلام معقول ؟ ثم انه طيب حاذق

جدا ، منذ مدة ... اسمع لى أن أقص عليك هذا يا عزيزى فاسئلى

ميخائيلوفتش ... منذ مدة جاءه فقال فقير ، فقال له : « لقد وُخزت

أصبعى بأداة من أدواتى ، فعالجنى واشفى ، ، فلما رأى سيميون بانفوتتش

أن المسكين مهدد بالفنفرين قرر أن يتر العضو المصاب • ففعل ذلك

بحضورى ... فعله بحذق يبلغ من النبيل ، أقصد يبلغ من المهارة اتنى

أؤكد لك أن رؤية العملية كان يمكن أن تكون متعة كبيرة ، من قيل حب

الاطلاع على الأقل ، لولا ما يشعر به المرء من شفقة انسانية ... ولكن
أين وكيف مرضت ؟

- مرضت على أثر تبديل مسكنى ... ولم أنهض الا منذ قليل ...

- ولكنك ما تزال ضعيفا جدا ، وما كان ينبغي لك أن تخرج •
اذن لقد انتقلت من مسكنك القديم ؟ ولكن ما الذى دعاك الى ذلك ؟

- صاحبة البيت الذى كنت أسكنه غادرت بطرسبرج •

- دوما سافشنا ! أهذا ممكن ؟ يا لها من عجوز طيبة ، نبيلة حقا !

هل تعلم أننى كنت أشعر نحوها باحترام يشبه أن يكون احترام الابن
أمه ؟ كان فى حياتها المنتهية شئ من تلك الروعة الباقية من زمان أسلافنا
القدامى ، فاذا نظر اليها المرء رأى ماضينا القديم يحيا مرة أخرى أمام
عينيه ، رآه بكل ما فيه من عظمة ! • • أقصد • • هل ترى • • شئ
شعرى • • •

بذلك ختم ياروسلاف ايلتشس كلامه ، وقد اشتد خجله فجأة ،

واحمر وجهه حتى الأذنين •

- نعم لقد كانت امرأة شهمة •

- ولكن هل تسمح لى أن أعرف أين تسكن الآن ؟

- هنا • • غير بعيد • • فى منزل كوشماروف *

- أعرفه • • شيخ مهيب • • أستطيع أن أقول اننى أكاد أكون صديقه

المخلص • شيخ نبيل •

قال ياروسلاف ايلتشس ذلك وهو يكاد يرتعش فرحا وحنانا • وأمر

بكأس أخرى من الخمر ، وبفليون •

- لقد استأجرت شقة اذن ؟

- بل استأجرت غرفة •

- عند من ؟ لعلنى أعرف أيضا •••

- عند مورين ، شيخ طويل القامة •

- مورين ، مورين ••• اسمح لى ••• أهو ذلك الذى يسكن فى

الفناء الداخلى فوق صانع التواييت ؟

- نعم ، نعم •

- أنت مرتاح هنالك ؟

- لم أسكن الا منذ برهة قصيرة •

- هيم " ••• أردت فقط أن أقول ••• هيم ••• ألم تلاحظ شيئا

خاصا ؟

- لاحظت •

- أقصد ••• أنا واثق أنك سترتاح اذا كنت راضيا عن مسكنك ••

لم أقصد هذا ••• ولكننى لمعرفتى بطبعك •• كيف وجدت هذا المعجوز

البورجوازى ؟ •••

- يخيّل الى أنه رجل مريض •••

- نعم ••• مريض جدا ••• ولكن ألم تلاحظ شيئا خاصا ؟ هل

كلمته ؟

- قليلا جدا ••• انه لا يحب معاشره الناس كثيرا ••• وهو سريع

الغضب •••

- هيم ٠٠٠

كذلك قال ياروسلاف ايلتش سادرا مفكرا • ثم أردف يقول بعد لحظة صمت :

- انه رجل تعيس شقى جدا •

- هو ؟

- نعم • تعيس شقى جدا • وهو فى الوقت نفسه غريب الاطوار ••
طريف كل الطرافة • على كل حال ، اذا كان لايزعجك ••• معذرة اذا
كنت أتكلم فى مثل هذا الموضوع ••• لقد نار حب الاستطلاع فى نفسى •
- الحق أنك أثرت فى نفسى حب الاستطلاع أيضا ••• وددت
لو أعرف من هذا الرجل ! ثم اننى أسكن فى بيته •••

- يقال انه كان فى الماضى على جانب كبير من الثراء • كان تاجرا ،
ولعلك سمعت عن ذلك • ولكنه فقد ثروته على أثر ظروف تسمية
مختلفة : غرقت له بواخر أثناء عاصفة • وكان يملك مصنعا عهد بادارته
الى قريب من أقربائه يحبه كثيرا ، فتدمر المصنع بحريق ومات قريبه فى
الحريق • لا شك أنك تعترف أن هذه خسارات جسيمة رهية ! وعندئذ
انهار مورين فيما يقال ، حتى أصبح الناس يخشون على عقله أن يذهب •
وبالفعل ، فانه أثناء مشاجرة قامت بينه وبين تاجر آخر يملك بواخر على
الفولجا أيضا تصرف فجأة تصرفا يبلغ من الغرابة والشذوذ أن الناس
عزوا ذلك الى جنون متأصل • وأنا أميل الى تصديق هذا أيضا • لقد
سمعت الناس يتحدثون عن غرائبه ••• وأخيرا حدث فى يوم من الأيام
شئ • يبلغ من الشذوذ أن المرء أصبح لا يستطيع أن يعلله الا بأن الرجل
قد أفقده القدر القاسى الحائق صوابه •

– ما الذى حدث ؟

– يقال انه أثناء نوبة جنون مرضى حاول قتل تاجر شاب كان يحبه حتى ذلك الحين جبا كبيرا . فلما تاب الى رشده بلغ هوله من فعلته أنه أراد أن يتحرر . ذلك ما يروى على الأقل . لا أدري على وجه الدقة ماذا حدث بعد ذلك . ولكن من المحقق أنه عاش عدة سنين فى «العقوبة» * . ولكن ماذا بك يا فاسيلى ميخائيلوفتش ؟ ألم تتبكت قصتى البسيطة هذه ؟

– لا ، لا ، أرجوك تقول انه عاش معاقبا ولكنه ليس وحيدا

– لا أعلم يقال انه كان وحيدا نعم لم يدخل أحد فى هذه القضية . على كل حال لم أسمع شيئا عما جرى بعد ذلك ولكننى أعرف

– تعرف ماذا ؟

– أعرف أنه ولكن ليس نعمة شيء ذو بال أضيفه كل ما أريد أن أقوله هو أن عليك ، اذا لاحظت فيه شيئا غريبا يخرج عن المألوف ، أن لا ترد ذلك الا الى المصائب التى نزلت به واحدة بعد أخرى

– نعم انه تقى ، بل هو مسرف فى التقوى .

– لا أظن ذلك يا فاسيلى ميخائيلوفتش لقد تألم كثيرا ويخيل الى أنه صافى القلب

– ولكنه ليس مجنوننا الآن انه معافى

– نعم نعم ، هذا محقق ، أستطيع أن أؤكده وأن أحلف عليه

انه يتمتع بجميع ملكاته العقلية . كل ما هنالك أنه كما أشرت أنت الى ذلك عرضاً غريب الأطوار جدا و ... متدين متعبد ... انه عاقل جدا ... حسن الكلام جرى القول ولا يخلو حديثه من مكر . وما تزال تلاحظ في وجهه آثار حياته الماضية المليئة بالعواصف والاعاصير . رجل طريف . وقد قرأ كثيراً .

- يبدو لي أنه يقرأ دائماً كتباً مقدسة .

- نعم ، هو انسان متصوف .

- كيف ؟

- متصوف ... ولكننى أقول لك هذا سرا . واليك سرّاً آخر :

لقد ظل هذا الرجل مراقباً مدة طويلة ... كان له سلطان كبير على من يجيئون اليه .

- أى سلطان ؟

- لن تصدق ما سأرويهِ لك ... اسمع ... فى ذلك الوقت لم يكن يقطن فى هذا الحى ... جاء اليه فى يوم من الأيام ألكسندر اجناتيفتش ، وهو رجل محترم جدا ، على المقام ، ينعم باعتبار جميع الناس ، جاء اليه من قبيل حب الاطلاع ، مع رجل آخر هو ملازم فى الجيش . وصل الرجلان الى منزله ، فاستقبلهما ، فأخذ هذا الانسان الغريب ينظر اليهما باتباه شديد ، متفرساً فى وجهيهما . تلك عادته فى النظر الى الناس متفرساً فى الوجه اذا هو ارتضى أن يفيدهما فى شىء . أما اذا لم يرتض ذلك ، فانه يطرد زائريه ، بل يقال انه يطردهم شر طردة ، بغير لباقة ولا أدب ولا تهذيب . سألهما : « ماذا تريدان أيها السيدان » ، فأجابهُ الكسندر اجناتيفتش بقوله : « موهبتك كفيّلة باطلاعتك على ما نريد

دون أن نذكره لك . ، فقال : « ادخلا معي الى الغرفة الثانية » ، وهناك عيّن الشخص الذي كان في حاجة اليه . لم يقص ألكسندر اجناتيفتش على أحد ما جرى بعد ذلك . ولكنه خرج من منزل الرجل أبيض الوجه كمنديل وقد وقع هذا الأمر نفسه لسيدة عظيمة من المجتمع الراقي : خرجت من عنده شاحبة كأنها ميتة ، غارقة في دموعها ، مشدوهة العقل من تنبؤاته ومن فصاحة كلامه

- غريب ولكنه الآن لا يعنى بهذه الأمور ؟

- ممنوع معنا باتا . هناك حالات خارقة تناقل الناس روايتها دخل عليه في يوم من الأيام شاب ضابط كان معقد رجاء أسرته الارستقراطية ومناطق أملها ومحل اعتزازها وافتخارها ، فلما ابتسم الشاب حين نظر الى الرجل ، قال له هذا غاضبا : « ما الذي يضحكك ؟ لن تمضي ثلاثة أيام الا وتكون هكذا ، قال ذلك مصالبا ذراعيه ، ممثلا بهذه الحركة شكل جثة

- وبعد ذلك ؟

- لا أجرؤ أن أصدق ما حدث ، ولكن يقال ان النبوءة تحققت ، فمات الشاب بعد ثلاثة أيام فعلا . انه يملك هذه الموهبة يا فاسيلي ميخايلوفتش . أراك تبسم لقصتي . أنا أعلم أنك أتقف مني . ولكنني أوّمن بالأمر . ليس الرجل بدجال . ان بوشكين نفسه يتكلم عن شيء من هذا القبيل في كتبه .

- هم لا أحب أن أكذب ما تقول

- يخيل اليّ أنك قلت منذ برهة انه لا يعيش وحيدا ؟

- لا أعلم ... أظن أن ابنته تعيش معه ...

- ابنته ؟

- نعم ، أو ربما زوجته • أعرف أن امرأة تعيش معه ... رأيها عرضا ... ولكننى لم أنعم النظر •

- همّ ... غريب •

عاد الفتى يفكر ساهما • ورتت عواطف ياروسلاف ايلتش • تأثر قلبه من لقيا صديق قديم ، ومن أنه قص على هذا الصديق القديم أمورا شائقة بهذه الطريقة الجميلة • كان قاعدا على كرسيه يدخن غليونه ولا يحول نظره عن فاسيلي ميخائيلوفتش ، ولكنه انتفض فجأة ، ونهياً للنهوض على عجل • قال :

- انقضت ساعة كاملة ، وأنا ناسٍ ... مرة أخرى أشكر للدخول يا فاسيلي ميخائيلوفتش أنه جمعنا ، ولكن يجب على أن أذهب • هل تسمح لى بأن أزورك فى منزلت الكريم ، منزل العلم والادب ؟

- سيكون هذا فضلا منك ... سيسعدنى هذا كثيرا • وسأجىء اليك أنا أيضا متى استطعت ذلك •

- أهذا ممكن ؟ انك لتفدق على اذن فضلا لا نهاية له • لا تستطيع أن تصور مدى سرورى بليقائك •

خرج الرجلان من المطعم ، فرأيا سرجيف يقبل عليهما راكضا • ثم يبلغ ياروسلاف ايلتش مسرعا أن فيليم ايمليانوفتش * سيمرُ توأ • وفعلا ظهر فى الشارع فرسان يجران مركبة جميلة جدا ، ويجريان خيأ ويلفت أحدهما النظر بروعة خاصة •

شد ياروسلاف ايلتش على يد صديقه الحميم شداً قويا كما تشد
كلاية ، ورفع رأسه الى قبته فلامسها محيا ، واندفع الى داخل العربية .
وفيما كانت العربية تسير به التفت مرتين الى وراء يسلم على أوردينوف
بحركة من رأسه .

كان أوردينوف يشعر بتعب شديد واعياء كبير في جميع أعضائه حتى
ليكاد يعجز عن جر ساقيه . فلم يستطع أن يصل الى المنزل الا بعد لأي .
والتقى مرة أخرى عند مدخل المبنى بالبواب الذي كان قد راقب تحيات
الوداع بينه وبين ياروسلاف ايلتش مراقبة دقيقة ، وأوماً الى الفتى من
بعيد ايماء دعوة ، ولكن الفتى مرّ دون أن يتوقف . وعند باب المسكن ،
اصطدم بشخص قصير القامة أشهب الشعر كان خارجا من عند مورين
خافض العينين . فقفز الرجل جانبا بمرونة كبيرة بينما كان يدمم قائلا :
- يارب يارب ، اغفر خطاياي ، اغفر عن ذنوبي يارب .

فقال أوردينوف :

- هل آذيتك ؟

- لا شكرا يارب ، يارب

هبط الرجل القصير على السلم ببطء وهو يتأوه ويدمدم ببعض
الكلام بين أسنانه ؛ انه صاحب العمارة الذي يخشاه البواب تلك الخشية
كلها . عندئذ فقط تذكر أوردينوف أنه كان قد رآه أول مرة هنا عند
مورين يوم انتقاله الى هذا المسكن .

كان أوردينوف يشعر باحتياج واضطراب . وكان يعلم أن خياله
واحساسه متوتران الى أقصى حدود التوتر ، فقرر أن لا يسترسل في
مشاعره ، وأن لا يركن اليها . وشيئا فشيئا هوى الى نوع من الخدر .

كان يجثم على صدره شعور اليم مقلق • وكان قلبه موجعا كانه جريح ،
وكانت نفسه تفيض بدموع مخنوقة لا ينضب معينها •

وارتمى من جديد على سريره الذى كانت قد أعدته له كاترين ،
ومن جديد أخذ يتنصت مصيحا بسمعه مرهفا أذنيه • سمع تنفسين :
أحدهما شاق أليم مرضى منقطع ، والثانى رفيق هادى ، ولكنه متفاوت
مضطرب أيضا ؟ فكأن اندفاعا واحدا وهوى واحدا يحملان القلبين كليهما
على هذا الحُفْقان ، هناك فى الغرفة المجاورة •• وكان يسمع فى بعض
الاحيان حفيف ثوبها ، وانزلاق خطواتها الرفيقة انزلاقا خفيفا ، بل
كان يسمع صوت قدمها يترجع فى قلبه عذابا أصم لكنه ممتع • وأحس
أخيرا أنه يسمع نشجات بكاء ، ثم أصوات صلاة من جديد • كان يعلم
انها الآن راكعة أمام الأيقونة ضامة ذراعيها احدهما الى الأخرى فى حزن
شديد ويأس رهيب • من هى هذه المرأة ؟ لمن تدعو الله ؟ أى هوى يأس
يبعث هذا الاضطراب فى قلبها ؟ لماذا يتألم قلبها هذا الألم كله ، لماذا
ينفجر دموعا محرقة يائسة الى هذه الدرجة ؟

وأخذ يستعيد ذكرى أقوالها • ان كل ما قالته له ما يزال يترجع
فى أذنيه ترجع موسيقى ؛ وان قلبه يستجيب لكل ذكرى ، لكل كلمة من
كلماتها التى رددتها على مسمعه كترتيل صلاة ، ان قلبه يستجيب لكل
هذا حبا قويا ، وخفقة صماء موجعة أليمة ••• وفى لحظة من اللحظات
التمع فى ذهنه كل ما قد رآه فى الحلم • ولكن قلبه كله ارتجف حين
عاد الى خياله احساسه بأنفاسها الحارة وبكلماتها وبقبيلتها • أغمض أودينوف
عينيه ، واستسلم للنسيان ••• دقت ساعة فى مكان ما ••• لقد انقضى زمن
طويل ••• الليل يهبط •

وفجأة خيل اليه أنها تميل عليه من جديد ، انها تنظر الى عينيه

عينها العذبتين الوضائتين كقبة السماء اللانهائية فى ساعة الظهر الدافئة •
ان وجهها ينيره هدوء رائع ، وان ابتسامتها تشيع فى نفسه سعادة كبيرة ،
وانها تميل على كتفه بعطف عظيم ، فما يملك لهذا كله الا أن تخرج من
صدره الموهن أنه سعادة •

كانت تريد أن تكلمه • وها هى ذى تسرُّ اليه بأمر ما ، حانية عليه
متلطفة معه ••• فترجع فى أذنيه موسيقى نافذة مؤثرة من جديد ،
ويتنفس صدره الهواء الدافئ الذى تلهبه أنفاسها القريبة ، يتنفسه بشراهة
ونهم • وها هو ذا يمد يديه قلما ويتأوه ويفتح عينيه •

كانت كاترين أمامه حقا ، ماثلة على وجهه ، شاحبة اللون هلعا ،
غارقة فى دموعها ، مرتجفة أشد الارتجاف من فرط الانفعال • وكانت
تقول له شيئا ما ، ضارعة اليه وهى تضم يديها وتعضهما • أخذها بين
ذراعيه • فلبت على صدره وجسمها كله يرتعش •

الفصل الثاني

١

أوردنيوف وقد صحا صحوا تماما وما يزال يضمها
بين ذراعيه الملتهمين ضما قويا :

— ماذا هنالك ؟ ماذا بك ؟ ماذا بك يا كاترين ؟
ماذا بك يا حيتي ؟



كانت تنسج في رفق ، غاضة طرفها ، مخبئة وجهها المحترق في
صدر القى ، ولبت على هذه الحال زما طويلا لا تستطيع أن تكلم ،
وترتجف كأنها خائفة •

قالت أخيرا بصوت ضعيف لا يكاد يُسمع :

— لا أدري •

كانت تخرق ، ولا تكاد تقوى على النطق بهذه الكلمات •

وأضافت :

- لا أدري كيف جئت الى هنا ، الى عندك •

وشدت جسمها اليه بمزيد من القوة ؛ وكأن عاطفة لا سبيل الى مقاومتها قد هزتها هزا قويا ، فاذا هي تقبل كتفيه ، وذراعيه ، وصدره • وأحست أخيرا بانهايار ، فخبات وجهها فى يديها ، وأسقطت رأسها على ركبتيها •

فلما استطاع أوردينوف ، وقد استبد به قلق شديد ، أن ينهضها وأن يجلسها قربه ، كان وجهها يحترق خجلا وحياء ، وكانت عينها تضرعان ملتمتين العفو والصفح ، وكانت البسمة التى تبدو ضعيفة على شفيتها تحاول أن تغالب القوة الهائلة التى لاسبيل الى مغالبتها ، قوة شعورها الجديد • ولاح عليها مرة أخرى أنها خائفة من شيء ما : فها هى ذى تدفعه عنه بيدها ، ولا تكاد تنظر اليه ، وتجب على أسئلته ، خافضة الرأس ، بكلمات متقطعة ، وهمس وجل •

سألها أوردينوف :

- أتراك رأيت فى نومك حلما ثقيلًا ، أو رؤيا مفزعة ؟ قولى ••• هل هو أفزعك ؟ ••• انه يهذى ، انه لا يملك عقله ••• أترأه قال أشياء ما كان ينبغى أن تسمعها ؟ ••• هل قال شيئا من هذا القليل ؟
نعم ؟

أجابت كاترين وهى تكبح انفعالها بكثير من الجهد والعنف :

- لا ••• لم أتم ••• لم أستطع الى النوم سيلا • وضمت هو طول الوقت • لم ينادنى الا مرة واحدة • اقتربت منه • ناديته • لم يسمعى •

- حالته سيئة جدا • أعانه الله • وعندئذ استبدى بى قلق شديد، قلق رهيب •
- صليت طول الوقت ، صليت بلا توقف ، ثم فجأة ذهلت عن نفسى •••
- كفى يا كاترين ، كفى يا حياتى ••• أمس انما اعتراك الخوف •
- لا لم أخف أمس •
- أ يحدث هذا أحيانا •
- نعم يحدث •

كانت ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وراودها الهلع والفرع من جديد ، فشدت نفسها اليه كطفل •

قالت وهى تجلس نشجاتها :

- هأت ذا ترى اذن أنتى لم أجبىء اليك بغير سبب •

ثم ردّدت تقول وهى تصافحه عرفانا بالجميل :

- لم يصعب علىّ أن أبقى هنالك وحدى الا لسبب • كفاك سكب

الدموع حزنا على شقاء الآخرين • احتفظ بدموعك ليوم تعذب فيه وحدك ، ليوم لا يكون معك فيه أحد • اسمع ••• هل سبق أن أحيت ؟

- لا ••• لم أحب قبلك ؟

- قبلى ؟ وتناديننى جييتك ؟

قالت ذلك وهى تنظر اليه مدهوشة على حين فجأة • وأرادت أن تقول شيئا ، لكنها صمتت وغضت طرفها • ثم احمر وجهها بغنة ، ومن خلال الدموع التى ما تزال حارة ، الدموع المتسمة على أهدابها ، سطعت عيناها • كان واضحا أن هناك سؤالا يحرك شفقتها • نظرت اليه مرتين، نظرة ماكرة ، ثم خفضت عيناها فجأة من جديد • قالت :

- لا ... لا يمكن أن أكون أول حب لك •

ثم رددت تقول وهي تهز رأسها ساهمة ، بينما كانت تضيء وجهها
ابتسامة جديدة :

- لا ... لا ..

وقالت أخيرا وهي تفجر ضاحكة :

- لا ... لست من يمكن أن تكون حبيبتي !

ثم نظرت إليه • غير أن حزنا رهيبا قد طاف بوجهها عندئذ على حين
فجأة ، وخوفا يائسا قد ارتسم على جميع قسماتها ، فشمرد أردنيوف بشفقة
غريبة ، شفقة لا تفهم ، شفقة مرضية ، شعر بعطف قوى على شقاء
مجهول ؛ ويعذاب لا يغالط نظر إليها • قالت بصوت يضيء الى القلب ،
وهي تشد على يدي أردنيوف بين يديها ، وتحاول أن تخنق نسيجاتها :

- اسمع ما سأقوله لك • اسمع جيدا • اسمع يا فرحتي ! سيطر
على قلبك ، وكف عن حبي اذا كنت تحبني الآن • ذلك خير لك • فان
استطعت أن تكف عن حبي أصبح قلبك أخف وأفرح ، وتحاشيت عدوا
رهيبا ، وكسبت أختا حنونا • سأتى اليك ان شئت • وسأداعبك ، ولن
أخجل من البقاء قربك • لقد بقيت قربك يومين حين كنت مريضا جدا !
فاتخذني أختا • لقد دعوت لك العذراء دعاء حارا ، وما فعلت هذا عبثا ؟
لن تجد أختا أخرى مثلى • لو طفت الكون بأسره ، فلن تجد جبا كحبي ،
اذا كان قلبك ينشد الحب • سأحبك بقلبي كله ، كما أحبك الآن ،
وسأحبك لأن روحك صافية ، مضيئة ، شفافة ، لأننى حين نظرت اليك
أول مرة ، رأيت فيك على الفور نزيل مسكنى ، النزيل الذى أريده ،
فليس من باب المصادفة أنك جئت الينا • أحبك لأن عينيك ، حين تنظران ،

تجبان وتخاطبان من أعماق قلبك • وحين تخاطبني عينك أدرك فوراً كل ما تفكر فيه وكل ما يجول في خاطرك • لذلك أريد أن أهب لجسك حياتي وحررتي • لسوف يحلو لي أن أكون عبدة من وقع عليه قلبي ••• ولكن حياتي ليست لي • انها لانسان آخر ، وحررتي سجينه • ولكن اقبلني أختا ، كن أخي ، خذني لقلبك متى استبد بي الخوف والقلق من جديد • افعل ما من شأنه أن لا يجعلني أخجل من المجيء اليك والبقاء قربك ليلة طويلة • هل سمعتني ؟ هل فتحت لي قلبك ؟ هل فهم عقلك ما قلته لك ؟

وأرادت أن تقول شيئاً آخر أيضا • ولكنها نظرت اليه ، ووضعت يدها على كتفه ، ثم ارتمت على صدره مهدودة القوى • توقف صوتها في نشجات محمومة ولهي • ان صدرها يملو ناهدا ، وان وجهها يصطنع بحمرة كحمره الشفق عند غروب الشمس •

دمدم أوردنيوف يقول وهو يشعر بغشاوة تحجب عينيه ، ويحس بأنفاسه تتوقف :

- حياتي •••

واذ أصبح لا يعرف ماذا يقول ، ولا يفهم ماذا يقول ، واذا أصبح يرتجف مخافة أن يدمر بنسمة هذا الذي يحدث له فيحسبه رؤيا أكثر مما يحسبه واقعا من فرط ما أصبحت الأمور غامضة مبهمة أمام بصره ، قال :

- فرحتي ••• لا أعرف ••• أنا لا أفهمك ••• لا أتذكر ما قلته منذ هنيهة • عقلى أظلم • قلبى يتألم ••• مليكتي •••

وخنق الهياج صوته • شدد جسمها الى جسمه بمزيد من القوة • نهض • فقد صبره • سقط على ركبتيه محطما طائش اللب من الانفعال •

وانطلقت من صدره أخيرا نشجات • ان صوته الذى يصدر من القلب
رأسا ، يهتز اهتزاز جبل على مدى حماسة عظيمة وحب مجهول • قال
وهو يحاول أن يخلق نشجاته :

- من أنت ؟ من أنت أيتها الحبيبة الغالية ؟ من أين جئت يا حمامتى ؟
من أى سماء هبطت ؟ لكأن حلما يلفنى ، فما أستطيع أن أصدق وجودك
•• لا تلومنى •• دعيني أتكلم •• منذ مدة طويلة أريد أن أتكلم •••
من أنت ؟ من أنت يا فرحتى ؟ كيف وقعت على قلبى ؟ قولى ••• أنت
أختى منذ زمن طويل ؟ قصى على كل شىء عنك • أين كنت الى هذا
اليوم ؟ قولى لى ما اسم المكان الذى عشت فيه • ما الذى أحيطه هنالك ؟
بماذا كنت سعيدة ، وما الذى كان يجعلك حزينة ؟ أكان الهواء دافئا ثم ؟
أكانت السماء صافية ؟ ••• ما هى الموجودات التى كانت حبيبة الى قلبك ،
أثيرة فى نفسك ؟ من أحبك قبلى ؟ الى من اتجهت نفسك هنالك أول
ما اتجهت ؟ أكانت أمك معك ؟ أكانت هى التى تهدهدك وتلاعبك وتداعبك
حين كنت طفلة ؟ بماذا كنت تحلمين ؟ فيم كنت تفكرين ؟ ما هى أحلامك
التي تحققت ، وما هى أحلامك الأخرى ؟ قولى لى كل شىء ••• من هو
الانسان الذى خفق له قلبك البكر أول ما خفق ؟ من هو الانسان الذى
وهبته قلبك أول ما وهبت قلبك ؟ قولى لى ••• ما هو العطاء الذى يجب
أن أقابل به عطاءك قلبك ؟ تكلمى يا حبيبتى الغالية ، يا ضيائى ، يا أختى !
قولى لى كيف أستطيع أن أستحق حبك ؟

توقف صوته من جديد ، وخفض رأسه • ولكنه حين رفع عينيه
تجمد هولا ورعبا ، وانتصب شعر رأسه هلما وجزعا •
كانت كاترين قاعدة ، شاحبة الوجه كमित •

انها ساكنة جامدة ، شاخصة بصرها الى الفضاء • شفتاها مزرقتان

كشفتى جثة ، وعيناها تفيضان بألم أخرس رهيب . وها هي ذى تنهض
ببطء ، فتخطو بضع خطوات ، ثم ينطلق من صدرها نجيب حاد ، وتسقط
أمام الأيقونة ان كلمات موجزة ، مضطربة ، تخرج من بين شفتيها .
وأغمى عليها . فأسرع أوردنيوف ينهضها مروعا ، ويرقدتها على السرير .
لبث واقفا أمامها لا يتذكر شيئا . وبعد دقيقة فتحت عيناها ، وجلست على
السرير ، ونظرت حولها ، وأمسكت يد أوردنيوف . جذبته نحوها ،
تمتمت بشيء بين شفتيها الصفراوين ، ولكن صوتها لم يسمعها . وأخيرا
تدفقت دموعها غزيرة تحرق يد أوردنيوف الباردة كالثلج . وأخيرا قالت
هلمة :

— ما أشد هذا الألم ما أشده ! . . . حانت ساعتى الأخيرة .

أرادت أن تقول شيئا آخر ، ولكن لسانها لم يطاوعها . كانت عاجزة
عن النطق بكلمة واحدة . انها تنظر يائسة الى أوردنيوف الذى لا يفهمها .
مال أوردنيوف عليها ، ازداد دنوا منها ، أصفى اليها ، فسمعها تنطق بهذه
الكلمات واضحة :

— أنا مسحورة . . سحرونى . . ضيعونى . .

رفع أوردنيوف رأسه ونظر اليها مدهوشا . ان فكرة فظيعة تبرز
فى رأسه . رأت كاترين تقبض وجهه . أردفت تقول :

— نعم سحرونى . رجل شرير سحرونى . . انه هو . هو قاتلى .
لقد بعته نفسى . . لماذا ، لماذا تكلمت عن أبى ؟ لماذا أردت أن تعذبنى ؟
جازاك الله !

وبعد برهة أخذت تبكى فى رفق . ان قلب أوردنيوف يخفق خفقانا
قويا ، ويعانى قلعا قاتلا :

همست تقول بصوت محبوس ، عجيب :

- يقول انه سيأتى يأخذ روحى اذا مات ... اتى له • لقد بعث
نفسى • عذبنى • قرأ فى الكتب • انظر • • • هذا كتابه • اليك كتابه •
يقول اتى ارتكبت اثما قاتلا • • انظر • • انظر • •

أشارت الى كتاب • لم يكن أوردينوف قد لاحظ الكتاب ، ولا عرف
كيف وجد فى هذا المكان • تناول الكتاب بحركة اليه • هو كتاب من
طراز الكتب القديمة التى يقرؤها فدامى المؤمنين والتى أتبع له ان يرى
مثلها قبل الآن • ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن ينظر • ان انتباهه
منصرف الى شيء آخر اتصرافا كاملا • سقط الكتاب من بين يديه • ضم
كاترين ضما رقيقا ، محاولا أن يردّها الى صوابها • قال لها :

- كفى كفى • • • لقد روعوك • أنا ممل • تفى يى ، يا حبيبتى
الغالية ، يا ضيائى • • •

قالت وهى تشد على يديه شداً قويا :

- أنت لا تعرف شيئا ، لا تعرف شيئا • أنا دائما هكذا • • • خائفة
من كل شيء •

ثم قالت بعد لحظة ، وهى تلهث لهاثا شديدا :

- حسبك ، حسبك ، لا تعذبني مزيدا من التعذيب ، والا ذهبت
اليه • انه كثيرا ما يخيفنى بأقواله • • • أحيانا يتناول كتابا ، هو أكبر
الكتب ، ويأخذ يقرأ لى فيه • • • انه يقرأ دائما أشياء قاسية جدا ، أشياء
رهيبة فظيعة ! لا أعرف ماذا يقرأ ، لا أفهم جميع الكلمات ، ولكن الخوف
يعترينى ؛ وحين أسمع صوته ، فكأنه ليس هو الذى يقرأ ، بل شخص

شريع لا سبيل الى ترويضه ، ولا يمكن تأنيسه وتلطيفه • عندئذ ينقبض
قلبي حزناً ••• عندئذ يحترق قلبي ••• شيء مروّع ، فظيخ ! •••
قال أوردنيوف وهو لا يكاد يفهم كلماتها :

- لا تذهبي اليه ! لماذا تذهبين اليه ؟

- لماذا جئت اليك ؟ اسأل هذا السؤال •• أنا نفسي لا أعرف • وهو
يقول لي طول الوقت : « صلى لله ، صلى » أحياناً انهض في الليل المظلم
البهيم ، فاصلي مدة طويلة ، ساعات كاملة • وكثيراً ما أكون نسي ولكن
الخوف يمنعي من النوم فاضل يقضي ، ويخيل الي عندئذ أن الصاعقة
تتهياً حولى ، أن هذا سيحمل الي الأذى ، أن الأشرار سيمزقوني ،
سيقتلونني ، أن القديسين لن يسمعوا صلواتي وضراعتي ، وأنهم لن
ينقذوني من العذاب الرهيب ••• نفسي تهشم ، كأن الجسم كله يريد
أن ينوب دموعاً ••• أستأنف الصلاة ، وأظل أصلي الي أن تنظر الي
السيدة العذراء - في الأيقونة - بشيء من الحنان • وأنا أحياناً على
الأرض ، ساجدة أمام الأيقونة • ولكن يحدث أيضاً أن يستيقظ ، فيناديني ،
ويأخذ يلامسني ويواسيني ، فأشعر عندئذ بتحسن ، وأصبح خفيفة فرحة
قادرة على احتمال أى شقاء • متى كنت معه ، لا أشعر بخوف • كلامه
عظيم •

سألها أوردنيوف وهو يعرض على يديه المأ ويأساً •

- ولكن ما هو الشقاء الذي ألم بك ؟

امتقع لون كاترين امتقاعاً رهيباً • نظرت اليه نظرة من حكم عليه
بالاعدام ولا أمل له في عفو • قالت :

- الشقاء الذي ألم بي أنا ؟ أنا ابنة لمتها أمها ••• أنا أمت أمي •

أحاطها أوردنيوف بذراعيه دون أن ينبس بكلمة •

شدت جسمها اليه • شعر بقشعريرة تسرى فى جسم المرأة الشابة

وخيل اليه أن روحها تنفصل عن جسدها •

قالت مضطربة الذكريات ناظرة الى ماضيها :

— لقد دفتها ••• أردت أن أتكلم منذ مدة طويلة • ولكنه يمتنعى

من الكلام بالصلوات ، والملاحظات ، والتهديدات ••• وفى بعض الاحيان

يضرم هو نفسه خوفاً كما يمكن أن يفعل أعدى عدو لى ••• والآن

توافينى هذه الأفكار كلها فى الليل ••• اسمع ، اسمع ••• حدث ذلك

منذ زمن بعيد ، بعيد جدا • أصبحت لا أتذكر الآن متى حدث ، ولكن

كأنه حدث أمس ••• كأنه حلم رأيته أمس فكان يأكل قلبى • والقلق

يضاعف طول الزمان ••• اجلس هنا ، اجلس قربي ، فسأقص عليك

قصة ألى كله • لا يهمنى أنتى لُغت ••• سوف أروى لك حياتى كلها •

أراد أوردنيوف أن يمنعه من ذلك ، ولكنها ضمت يدها احديهما

الى الأخرى ضارعة اليه أن يسمع كلامها • ثم أخذت تتحدث من جديد ،

باضطراب ما ينفك يزداد • قصتها مفتحة • فى أقوالها تهمهم عاصفة

نفسها • ولكن أوردنيوف كان يفهم كل شىء ، لأن حياتها كانت قد أصبحت

حياته ولأن ألىها كان قد أصبح ألىه ، ولأن عدوه كان قد انتصب أمامه ،

يضخّم فى عينيه عند كل كلمة جديدة تقولها ، ويجهّم على قلبه بقوة كأنها

لا تنضب ، ضاحكا من غضبه ، مستهزئا بحنقه • كان دمه يزدحم فى

قلبه ، ويعتم أفكاره • ان الشيخ الشرير الذى رآه فى المنام (كان

أوردنيوف يعتقد أنه رآه فى المنام) هو الآن أمامه فعلا •

بدأت كاترين كلامها :

« كان ذلك فى ليلة تشبه هذه الليلة لكنها أعصف منها • الريح تهب فى العابة هبوبا لم أشهد مثله حتى الآن •• أو لعلنى أظن ذلك لأن تلك الليلة هي الليلة التى تم فيها ضياعى ! •• تحت نافذتى تحطمت شجرة سنديان •• لقد أكد لنا شحاذ ، وهو شيخ أبيض الشعر تماما كان يأتى البنا ، أنه رأى هذه الشجرة حين كان طفلا ، وأنها كانت فى ذلك الحين لا تقل ضخامة منها يوم حطمتها الريح ••

« وفى تلك الليلة نفسها - اننى أتذكر كل شىء كأنه حدث بالامس - حطمت العاصفة سفن أبى ، فذهب أبى الى الشاطيء فوراً ، رغم انه كان مريضاً ، منذ هرع الصيادون يبلغونه النبأ عندنا فى المصنع • بقينا أنا وأمى وخذنا • كنت وسنى •• وكنت حزينة أبكى بكاء مرا •• أعرف لماذا ••• كانت أمى قد مرضت منذ قليل ، وكانت شاحبة الوجه ، وكانت تردد على مسامعى فى كل لحظة ان على أن أهيب لها كنفها • وفجأة طرقت باب منزلنا •• قفزت من مكائى • ازدحم الدم فى قلبى • صرخت أمى •• لم أنظر اليها •• كنت خائفة • حملت المصباح ، ومضيت افتح الباب بنفسى •• كان هو • خفت • كنت دائماً أخاف حين يأتى البنا • كان ذلك شأنى منذ أبعد عهد أتذكره من طفولتى •• ولم يكن شعره أبيض فى ذلك الحين • كانت لحيته سواد كالقار ، وكانت عيناه تلمعان لمعان الفحم ، ولم ينظر الى نظرة حنان مرة واحدة •• سألتى هل أمى فى البيت • أغلقت الباب ، وأجبت بآن أبى ليس فى البيت • قال : « أعرف » ، ونظر الى على حين فجأة نظرة خاصة • تلك أول مرة ينظر الى فيها هكذا • انصرفت • ظل ساكنا لا يتحرك • قلت لتفسى : « لماذا لا ييجى ؟ » • ودخلنا الغرفة • سألتى : « لماذا أجبتى بأن أباك ليس فى المنزل حين سألتك هل أمك فى المنزل ؟ » • صمت •

« كانت أمى فى دعر • ارتمت عليه ••• لم يكن ينظر اليها • كنت

أرى كل شيء • كان مبللا يرتجف • لقد لاحقته العاصفة عشرين فرسخا
من أين كان آتيا؟ لم نكن نعرف ذلك ، لا أنا ولا أمي • اتنا لم نره منذ
تسعة أسابيع • خلع طاقيته ونزع قفازيه • لم يصل للأيقونات ، ولا حيا
أهل المنزل ••• قدم قروب النار •••

أمرت كاترين يدها على وجهها كأن شيئا كان يخنقها • ولكنها
رفعت رأسها بعد دقيقة وتابعت تروي قصتها :

« اخذ يكلم امي ، باللغة الترية • كانت امي تعرف هذه اللغة •
أما أنا فلم افهم كلمة واحدة • كانا في بعض الاحيان يصرفاني اذا جاء
••• أما الآن فان امي لم تجرؤ ان تقول شيئا لابنتها • الشيطان يشتري
نفسى ، وانا انظر الى امي مسرورة • رأيت أنهما ينظران الى ، انهما
يتحدثان عنى ••• أخذت أمى تبكى ••• أمسك سكينه • سبق أن
حدث عدة مرات أن أمسك سكينه أثناء مخاطبته أمى • نهضت وتشبثت
بحزامه • كنت أريد أن أتزع من يده السكين • صر بأسنانه ، وصرخ ،
وأراد أن يدفعنى عنه ••• لطمنى على صدرى ، ولكننى لم أترجع •
قدرت أننى سأموت فى مكانى ••• غشيت عينى سحابة • سقطت على
الأرض دون أن أقول كلمة واحدة ••• ونظرت ما وسعنى أن أنظر وأنا
على هذه الحال ••• خلع حزامه ، وشمر كم اليد التى لطمنى بها ، وتناول
السكين فأعطانيها ، وقال لى : « ابترى يدي ، افعل ما تشائين ، ما دمت
قد أسأت اليك ، وأنا ، أنا المتكبر ، سوف أخرج ساجدا أمامك ••• » • أعدت
السكين الى غمدها ••• كنت أختنق ••• أبيت حتى أن أنظر اليه •
أذكر أننى تبسمت دون أن أباعد شفتى ، وأننى ألقيت نظرة قاسية على
عينى أمى الحزبتين ••• كانت أمى جالسة ، شاحبة الوجه كميتة •••
كان أوردينوف يصفى باتباه شديد الى هذه القصة المشوشة • وشيئا

فشيئا تبدد اضطراب كاترين • أصبح تدفق كلامها أهدأ • كانت الذكريات تستدرج المخلوقة البائسة ، وتبتر قلقها على صفحة الماضي العريض •

• تناول طاقيته وخرج دون ان يحس • حملت المصباح من جديد لأرافقه ، بدلا من أمى التى أرادت أن تشيخه برغم انها مريضة • وصلنا الى الباب الخارجى • كنت صامتا • فتح الباب وطرد الكلاب • نظرت اليه • خلع طاقيته وانحنى أمامى انحناء كبيرا • رأيت بعد ذلك يضع يده فى جيب صدرته فيخرج منها علبة صغيرة مفروشة بمخمل أحمر • فتح العلبة • نظرت • انها لالىء ضخمة • قسم الى اللآلىء قائلا : « لى جميلة غير بعيدة من هنا • كنت أحمل هذه اللآلىء اليها ، ولكننى لن أعطيها اياها • خذيها أنت يا حلوتى ، زينى بها جمالك ؛ أو اسحقها بقديك اذا شئت ، ولكن خذيها » • أخذت اللآلىء ، ولكننى لم أسحقها بقدمى • تناولتها تناول حية ، دون أن أعرف لماذا تناولتها • عدت الى الضرفة ، ووضعت اللآلىء على المائدة أمام أمى •

• لبثت أمى برهة لا تنطق بكلمة ، شاحبة شحوبا شديدا ، كأنها تخشى أن تكلمنى • ثم قالت : « ما هذا يا صغيرتى كاترين ؟ » ، فأجبتها « لك انما جاء هذا التاجر بها ••• أنا لا أدرى ••• » • نظرت اليها • أجهشت باكية • قالت : « لا ••• ليست لى يا كاترين ، ليست لى أيتها البنت الشريرة • ليست لى ••• ما زلت أتذكر مدى الحزن الذى لاح فى وجهها وهى تنطق بهذه الكلمات • لكأن قلبها كان يطمئن طمنا • رفعت عينى ••• أردت أن أرتسى على قدميها • ولكن الشيطان وسوس لى فجأة أن أقول : « اذا لم تكن لك ، فلعلها اذن لأبى • سأعطيها اياها متى عاد • سأقول له ان تجارا جاءوا الى هنا وتركوا هذه البضاعة ••• » • عندئذ أجهشت أمى باكية متتعبة ، وقالت : « سأذكر له بنفسى من هم التجار

الذين جاءوا الى هنا ، ومن أجل أية بضاعة جاءوا ... سأقول له من أنت يا ابنة الزنا ! ... ما أنت بستى بعد الآن ! أنت أفعى ! أنت ابنة لعنتها أمها ! » . سكت . كانت عيناى بلا دموع ، كان كل شىء قد مات فى نفسى ! ذهبت الى غرفتى ، ولبثت الليل كله أنصت الى العاصفة وأفكر ...

انقضت خمسة أيام . وفى مساء اليوم الخامس وصل أبى ، مقطب الحاجبين ، حانق الوجه . ولكن المرض كان قد حطمه فى أثناء الطريق . نظرت فرأيت ذراعه مضمدة . فهمت ان عدوه قد لقيه فى طريقه . وأنا أعرف ماذا كان عدوه . كنت أعرف كل شىء . لم يقل لأمى شيئا . لم يسأل عنى . واستدعى جميع العمال . أمرهم بوقف العمل فى المصنع ، وبان يحرسوا المنزل من العين الخبيثة . قال لى قلبى فى تلك اللحظة ان نازلة تهدد منزلنا . لبثنا ننتظر . انقضى الليل . ليلة أخرى تملؤها الصواعق . كان الاضطراب يمزو قلبى . فتحت نافذتى . كان وجهى يحترق ، وكانت عيناى تفيضان دموعا ، وكان قلبى يشتعل بنار . كان جسمى كله أشبه بجمرة . كنت أود لو أمضى الى بعيد ، الى آخر العالم ، الى حيث تولد الصاعقة . ان صدرى ينتفخ ... وفجأة ، فى ساعة متأخرة ، بينما كنت نائمة ، أو قل غافية نصف اغفاء ، سمعت طرقا على نافذتى وصوتا يهتف : « افتحى . » . نظرت . ان رجلا قد تسلق بواسطة جبل حتى وصل الى نافذتى . عرفته فورا . فتحت النافذة وتركت له أن يدخل غرفتى . انه هو . لم ينزع طاقيته . جلس على مقعد من المقاعد ، يلهث لهاثا قويا ، ولا يكاد يستطيع أن يتنفس ، كأن أحدا كان يطارده . لطوت فى ركن . أحسست أن وجهى يشحب ...

قال : « هل الأب فى البيت ؟ » قلت : « نعم » . قال : « والام ؟ » ،

قلت « والأم أيضا » • قال : « اسكتي الآن • هل تسمعين ؟ » قلت :
« أسمع » • قال « ماذا تسمعين ؟ » قلت : « الريح تحت النافذة » • قال :
« طيب يا جميلتي ، هل تريدان أن تقتلي عدوك ، أن تنادي أباك ، أن
ترهقي روحي ؟ أنا أخضع لمشيئتك • اليك هذا الجبل ، فأوثقيني به ، إذا
كان قلبك يهيب بك أن تنتقمي للإساءة » • سكت • قال : « هلا تكلمت
يا فرحتي ؟ » • قلت : « ماذا يجب ؟ ••• » قال : « يجب عليّ أن أبعث
عدوي ، وأن أودع حبيتي القديمة ، وأن أنحني لك أنت أيتها الفتاة
انحناء كبيرا من قبيل التحية ••• » • أخذت أضحك ، ولا أدري أنا نفسي
كيف نفذت هذه الكلمات الموبوءة الى قلبي • • • قال : « دعيني اذن
يا جميلتي أنزل الى تحت وأحيي رب المنزل » • ارتعشت من قمة رأسي
الى أخمص قدمي ، واصطكت أسناني ، واشتعل قلبي نارا ••• مضيت
أفتح الباب ، وأدع له أن يدخل البيت • ولكنني قلت عند العتبة : « استرد
لآلك ، ولا تُهد الى شيئا بعد الآن » • ورميت له العلبه الصغيره • • •
توقفت كاترين عن الكلام لتتنفس قليلا • كانت تارة ترتعش
وتشحب ، وتارة يزدحم الدم في وجنتيها • ففي اللحظة التي توقفت فيها
عن الكلام كان وجهها مشتعلا ، وكانت عيناها تلتمعان من خلال الدموع ،
وكانت أنفاسها الثقيلة ترعش صدرها • ولكنها لم تلبث أن اصفرت فجأة ،
ثم استأنفت تقول بصوت يفيض حزنا :

« لبت عندئذ وحدي ، وكنت أحس أن العاصفة تهمهم حولي •••
وفجأة سمعت صرخات ••• ان عمال المصنع يركضون في الفناء •••
ويصيحون : « المصنع يحترق » • اختبأت في ركن • هرب الجميع من
المنزل ••• بقيت وحيدة مع أمي • كنت أعرف أن الحياة تغادرها : انها
راقدة على فراش الموت منذ ثلاثة أيام • كنت أعلم ذلك ، أنا البنت التي

لعتها أمها ! وانطلقت فى غرفتى على حين بفتة صرخة ضعيفة ، كصرخة طفل يخاف من الليل . ثم هدأ كل شىء . نفخت على الشمعة . كنت متجمدة كالجليد . خبأت وجهى فى يدي . خفت أن أنظر . وفجأة سمعت صرخة على مقربة منى . كان أناس يهرعون من المصنع . ملت من على النافذة . . . رأيت أبى ميتا يحملونه الى البيت . وسمعت الناس يقولون : « لقد سقط من السلم فى مرجل الماء الغالى ، كأن الشيطان دفعه اليه ! » . شددت جسمى الى السرير . انتظرت . لا أدري من انتظرت ، لا أدري ماذا انتظرت . أتذكر الآن أن رأسى أصبح ثقيلًا عندئذ دفعة واحدة . وكان الدخان يخز عيني ، فيسعدنى أن ضياعى أصبح قريبًا . وفجأة شعرت بأن أحدا ينهضنى من كفى . . . نظرت ما أمكنتنى أن انظر . . . انه هو ! انه محترق . ثيابه ساخنة ، تفوح منها رائحة الدخان . قال : « جئت آخذك يا جميلتى . فقدت روحى من أجلك ، فى سبيلك . مهما أصلت ، فلن تغفر لى هذه الليلة الملعونة ، اللهم الا اذا صلينا معا ! » . وضحك ، ضحك الملعون ! قال : « دلينى على الطريق الذى يمكن أن نخرج منه دون أن يرانا أحد . أمسكت يده ، وقدمته . اجتزنا الدهليز . كانت المفاتيح معى . فتحت الباب الاحتياطى ، ودلته على النافذة . ان النافذة تطل على الحديقة . تناولنى بذراعيه القويتين ووثب من النافذة . . . أخذنا نركض . ركضنا مدة طويلة . لمحنا غابة كثيفة مظلمة . . . أصاح بسمعه . قال : « انهم يلاحقونا يا كاترين . انهم يطاردونا ! انهم يطاردونا يا جميلتى ؟ ولكن ليس هذا أوان الاستسلام . قبلينى فى سبيل الحب الأبدى ، والسعادة الأبدية ! » . قلت له : « لماذا فى يدك دم ؟ » قال : « دم ؟ يا عزيزتى . . . لأننى قتلت الكلاب التى كانت تتبع . هيا بنا . » . واستأنفنا الركض . وفجأة رأينا فى الطريق حصان أبى . كان الحصان قد ارتزع رسنه وهرب من الاسطبل لينجو من المهيب . قال :

« اركبي معي يا كاترين ، لقد أرسل الله الينا نجدة ! » • صمت • قال :

« ألا تريدن ؟ أنا لست وثياً ، ولا شيطاناً ، سأرسم إشارة الصليب اذا شئت • • » • رسم على نفسه إشارة الصليب • جلست على الحصان ، واذ شددت جسمي الى جسمه ، ذهلت عن نفسي على صدره ، فكأنني في حلم • • • حتى اذا ثبت الى رشدي ، كنا قد اصبحنا قرب نهر عريض ، عريض • • • أنزلني عن ظهر الحصان ، ثم ترجل ، ومضى نحو شجيرات القصب على شاطئ النهر • كان قد أخفى هنالك قاربه • قال : « وداعاً يا حصاني الشجاع ، ابحت لنفسك الآن عن صاحب آخر • أصحابك القدامى تركوك • • » • ارتيمت على حصان أبي أقبه بخان • ثم ركبنا القارب • تناول المجدافين ، فسرعان ما غاب عنا الشاطئ • فلما ابتعدنا هذا الابتعاد ترك المجدافين وأخذ يجيل نظره فيما حوله • قال : « سعد يومك أيها النهر ، يا مرضع العالم ويا مرضعي ! فل لي هل احتفلت برزقي في غيبي ؟ هل بضائعي سليمة لم يمسه أذى ؟ » • صمت وخفضت عيني • كان وجهي قد اصطبغ بالحمرة من الحجل • قال : « خذ كل شيء ان شئت ، ولكن عدني أن تصون وأن تحب لؤلؤتي التي لا تقدر بشئ • • • قولي كلمة واحدة على الأقل يا جميلتي ! أضيئي وجهك بإبتسامة ! كما تتردد الشمس الليل المظلم البهيم • • • » • قال ذلك وابتسم • أردت أن أقول كلمة • • • كنت خائفة • صمت • قال يجب على فكري الوجل الحجل « لك ما تشائين ! ما من شيء يمكن الحصول عليه عنوة • حفظك الله يا حمامتي ! أرى أن ما تحمله لي من كره هو الأقوى • • • » • كنت أصغى اليه • اعتراني غضب • قلت له :

« نعم أكرهك لأنك لطختني في تلك الليلة المظلمة ، وما تزال تسخر من قلبي قلب الفتاة • • • » • قلت ذلك ولم أستطع أن أحبس دموعي • بكي • وصمت • لكنه نظر الى نظرة لم أملك معها الا أن ارتعش ارتعاش

ورقة فى مهب الريح • قال لى وعيناہ تسطعان سطوعا رائعا : « اسمى يا جميلتى ! ان ما ساقوله له ليس لغوا ، بل هو عهد عظيم : ما ظلت تهيين لى السعادة فساكون سيذا ، ولكن اذا انقطعت عن حبى فى لحظة من اللحظات ، فلا حاجة بك الى الكلام ، بل تكفى اشارة من حاجبك ، يكفى أن تلقى على نظرة من عينك الكحلاء حتى أرد اليك حبك والحرية • ولكن اعلمى ، أيها الجمال الشامخ ، أن ذلك اليوم سيكون آخر أيامى ! ، جسمى كله ابتمس لدى سماع هذه الكلمات • • • »

هنا قطع الانفعال قصة كاترين • فتنفست ° ، حتى اذا همّت أن تتابع حديثها التقت نظرتها الملتمة بنظرة أوردينوف المشتعلة تحدق اليها ، فارتعشت ، وأرادت أن تقول شيئا ما ، ولكن الدم صعد الى وجهها • خبات وجهها فى يديها ، ودفتته فى المخدرات • كان أوردينوف مضطربا اعمق الاضطراب • ان انفغالا اليما لا يحدد ولا يطلق ، كان يسرى فى جميع أسجة جسمه سريان السم ، ويكبر ويعظم عند كل كلمة جديدة من قصة كاترين • ان رغبة لا يشغفها أمل ، وهدى جامحا شرها ، كانا يملكان عليه كل أفكاره ويثان الاضطراب فى عواطفه ، وان حزنا عميقا لا نهاية له كان فى الوقت نفسه يجثم على صدره بمزيد من الثقل شيئا بعد شيء • كان يريد فى بعض اللحظات أن يصرخ مناشدا كاترين أن تصمت ، كان يريد أن يرمى على قدميها ، ضارعا اليها والدموع فى عينيه ، أن تعيد اليه آلامها السابقة وعاطفتها الصافية القديمة • كان يشعر بالشفقة على دموعها التى جفت منذ مدة طويلة • كان قلبه يتألم ويتعذب • لم يفهم كل ما قالت كاترين ؟ كان حبه يخاف من العاطفة التى تهز المرأة الشقية • لعن فى تلك اللحظة هواه • ان هذا الهوى يخنقه خنقا ، وهو يشعر بما يشبه الرصاص يجرى فى شرايينه بدلا من الدم •

استأنفت كاترين كلامها تقول فجأة وقد رفعت رأسها :

- آه ... ليس شقائي فيما قصصته عليك حتى الآن • ليس هذا عذابي • لا يضيرني ان تلغنى أمى فى ساعتها الاخيرة ! اننى لا آسف على حياتى الذهبية السالفة ! ولا يضيرنى ان أكون قد بتت نفسى للآثم وان احمل الخطيئة الابدية من أجل لحظة سعادة ! لا ... ليس شقائي فى هذا ، ليس عذابي فى هذا ! ... لا ... وانما الذى يؤلمنى ويمزق قلبى تمزيقا هو أن أكون له عبدة ملوثة ، أن يكون عارى عزيزا فى نفسى ، أن يجد قلبى لسذة ومتعة فى تذكر ألمه كما لو كان هذا الألم فرحا وسعادة • ذلك هو شقائى : أن لا استطيع ان أغضب وأن أحمق للإساءة التى نالتنى ، والاذى الذى الحق بى ! ...

كانت أنفاس حمرى لاهثة تحرق شفيتها • كان صدرها يهبط هبوطا عميقا ويعلمو علوا كبيرا ، وكانت عيناها تسطمان بحنق مسعور ... ولكن فتنة رائعة كانت تنتشر على وجهها فى تلك اللحظة ، فتكتسب كل قسمة من قسماتها جمالا يبلغ من القوة أن جميع الأفكار السود المظلمة التى غزت أوردينوف أخذت تتبدد بما يشبه السحر • ان قلبه يرنو الى ضم قلبها ، انه يصبو الى أن ينسى نفسه معها فى عناق مجنون جامح حتى ليموتا معا • التقت عينا كاترين بنظرة أوردينوف المضطربة ، فابتسمت له ابتسامة أجبرت فى قلبه تيارين من نار يحرقانه ، وهو لا يكاد يدرك ذلك • همس يقول لها حابسا صوته المرتجف :

- ارحمىنى ... رفقاً بى ! ...

مالت كاترين عليه متكئة بأحدى ذراعيها على كنفه ، ونظرت اليه من قرب حتى اختلطت أنفاسهما •
- لقد ضيعتنى ! لست أعرف ألمك ، عصفت بقلبى ... ماذا يهمنى

أن أعرف أن قلبك يبكى ؟ قولي لي ما الذى ترغبين فيه ، فأفعله • تعالى
معى • هيا بنا • لا تقتليني ! لا تودى بحياتى ؟ •••

نظرت اليه كاترين ساكنة لا تتحرك ، وقد جفت الدموع على
وجنتيها المحترقتين • ارادت ان تقاطعه ، ان تمسك بيده ، أن تقول له
شيئا ، ولكن الكلمات لم تسعفها •

وهذه ابتسامة غريبة تظهر بطيئة على شفتيها ، ثم هذه ضحكة تخرج
من الابتسامة •

وتابعت أخيرا تقول :

— لم اقص عليك كل شيء ••• ساحكى لك أمورا أخرى • ولكن
هل تراك تصفى الى كلامى ؟ اصح الى حديث اختك ••• اريد ان اروى
لك كيف عشت سنة معه ••• لا ••• لن افعل هذا ••• « انقضت سنة •••
سافر مع رفاقه فى النهر • وبقيت انا مع أمه أنتظر • أنتظرته شهرا ،
فشهرا آخر • وفى ذات يوم ، التقيت بتاجر شاب ••• نظرت الى التاجر
الشاب ••• فتذكرت السنين الخوالى ••• قال لي التاجر الشاب بعد كلمتين
من حديث معى : « صديقتى الغالية ••• أنا ألكسى ، خطيبك السابق •
لقد خطب أهلونا أحدا للآخر منذ كنا طفلين • هل نسيتهنى ؟ تذكرى •••
أنا من قريتك ! » • قلت : « ماذا يقولون عنى هناك ؟ » • أجاب ألكسى
ضاحكا : « يقول الناس انك نسيت خفر العذارى ، وتعلقت بلص من قطاع
الطرق • » • قلت : « وأنت ماذا كان رأيك فى ؟ » • قال : « هناك
أشياء كثيرة كنت أريد أن أقولها (اضطرب قلبه) ••• كنت أريد أن
أقول أشياء كثيرة ••• أما وأناى رأيك الآن ، فقد ضمت • خذى روحى
يا جميلتى ، دوسى قلبى ، اهزئى بحبى • أنا الآن يثيم • وأنا سيد نفسى •
نفسى ملكى لم أبعها لأحد ••• » • أخذت أضحك • وكلمنى مرات

أخرى أيضا • وبقي فى القرية شهرا بكامله ••• ترك تجارته ، صرف عماله ، وبقي وحده • اشفت على دموعه ، دموع اليتيم • قلت له : « الكسى ، انتظرني عند الجسر متى هبط الليل • سنذهب الى منزلك • سئمت الحياة هنا • • • جاء المساء ، وأعددت حقيتي ••• وحانت منى التفاتة ، فاذا انا ارى مولاى راجعا على حين فجة • قال : « يومك سعيد • هيا بنا • ستهب العاصفة • يجب أن لا نضيع الوقت • • • تبعته • وصلنا الى ضفة النهر • نظرنا • راينا هنالك زورقا وربانا ••• لكانه كان ينتظر احدا ••• « يومك سعيد يا الكسى • أعطاك الله العافية ! ماذا ؟ هل تأخرت فى المرفأ ؟ ••• انك ستسارع للحاق بالسفن ••• فخذنا معك ، أنا وزوجتى ••• لقد تركت قاربى هناك ، ولا أستطيع أن أذهب اليه سباحة ! » • قال الكسى : « اجلس » • شعرت بألم يجتاح نفسى كلها حين سمعت صوته • « اجلس انت وزوجتك • الريح مواثية لنا جميعا ، وفى منزلى مكان لكما • • • جلسنا • أظلم الليل • اختفت النجوم ، وهبت الريح ، وأخذت الامواج تملو • كنا قد ابتعدنا عن الشاطئ مسافة فرسخ • لزمنا الصمت نحن الثلاثة • قال مولاى : « يا لها من عاصفة ! ان العاصفة تنذر بشر • ما رأيت فى حياتى عاصفة كهذه العاصفة على هذا النهر ! زورقنا متقل ••• لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة ! » • قال الكسى : « نعم ، لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة ••• واحد منا زائد اذن عن طاقة الزورق • • • كان صوته يرتجف ارتجاف جبل • « اسمع يا الكسى ، لقد عرفتك طفلا صغيرا جدا ، وكنت لأبيك كالإخ • قل لى يا الكسى : هل تستطيع أن تصل الى الشاطئ سباحة ، أم تراك تهلك اذا حاولت ذلك ؟ » • قال الكسى : « لا ••• لن أستطيع الوصول الى الشاطئ ، وسأهلك فى النهر • • • « اسمعى أنت يا كاترين ، يا لؤلؤتى التى لا تقدر بشمن • اننى أتذكر ليلة كهذه الليلة ، مع فرق واحد هو

أن الأمواج لم تكن تملو كما تملو الآن ، وكانت النجوم تتلألأ في السماء ،
 وكان القمر يرسل أشعة في الفضاء . . . أريد أن أسألك هل نسيت تلك
 الليلة ؟ . . . قلت : « بل أذكرها . » قال : « اذا كنت لم تنسيها ،
 فأنت لم تنسى اذن الوعد المقطوع أيضا . . . لم تنسى كيف علم الفتى
 الشجاع حبيته الجميلة ، الطريقة التي يجب أن تعمد إليها من أجل أن
 تسترد حريرتها . . . هه ؟ » قلت : « لا . . . لم أنسى ذلك أيضا ؟ »
 قال : « لم تنسى ذلك ؟ اذن . . . فانظري الآن . . . المركب مثقل بنا .
 وقد حان أجل واحد منا . تكلمي يا حمايتي . قولي لي كلمتك
 الحلوة . . . »

همست كاترين تقول لأوردينوف :

- ولم أفلها . . .

ولم تكمل كلامها ، فهذا هو صوت أصم يدويّ مناديا على حين
 فجأة :

- كاترين !

ارتعش أوردينوف . كان مورين واقفا عند الباب ، لا يكاد يرتدى
 شيئا غير غطاء من فراء ألقاه على جسمه ، وكان شاحب الوجه كميته .
 انه يحقد اليهما بعين تشبه أن تكون مجنونة . أخذت كاترين تنظر اليه
 وهي تزدد شحوبا وكأنها منومة :

قال الشيخ بصوت لا يكاد يسمع :

- كاترين ، تعالى الى .

وخرج من العرفة .

ظلت كاترين ساكنة ، تنظر في الفضاء كما لو كان الشيخ ما يزال

ماتلا أمامها • ولكن الدم لم يلبث أن تدفق في وجهها فجأة ، فجمعل
خديها الشاحين حراوين بلون الارجوان • تذكر أوردينوف لقاءهم
الأول •

قالت وهي تبسم :

— اذن الى الغد يا دموعى • الى الغد • تذكر الى أين وصلنا من
القصة ••• « اختارى أحد اثنين يا جميلتى : من الذى تحينه ومن الذى
لا تحينه • » • لا تنس أن تذكر أننا وصلنا من القصة الى هنا •

ثم أضافت تقول وهي تضع يديها على كفتى أوردينوف وتنظر اليه
في حنان :

... سوف تنتظر ليلة كاملة •

تمتم أوردينوف يقول وهو يرتعد خوفا عليها :

— كاترين ، لا تذهبي اليه ، لا تضعي نفسك • انه مجنون •

وناداه الصوت من وراء الحاجز :

— كاترين !

قالت كاترين لأوردينوف تسأله ضاحكة :

— ماذا ؟ أتحسب أنه سيقتلني ؟ نعمت مساءً يا قلبى ، يا طائرى ،

يا أخى •

قالت ذلك وهي تسند رأسها على صدره ، بينما أخذت دموع تفسر

من عينيها فجأة •

أضافت تقول :

• هذه آخر الدموع • ثم يا عزيزى • ستستيقظ غدا للفرح •
وقبلته قبلة محمومة •

ركع أوردينوف أمامها محاولا أن يثنيها عن الذهاب اليه ، قائلا :

– كاترين ، كاترين ، كاترين !

استدارت كاترين وهى تحييه بحركة من رأسها وتبتسم له ، ثم

خرجت من الغرفة •

سمعها أوردينوف تدخل على مورين • حبس أنفاسه وأنصت ، ولكن

لم يصل الى سمعه شيء •

كان العجوز صامتا ، أو لعله قد أغمى عليه من جديد •••

أراد أوردينوف أن يذهب اليها ، ولكن ساقيه كانتا تترنحان •••

أحس بوهن شديد ، فجلس على السرير •



استيقظ ، لبث برهة طويلة لا يدرك في أية ساعة
هو من الليل أو النهار ! أهذا هو الفجر أم هو
الشفق ؟ ما تزال غرفته ظلماء • لم يستطع أن
يحدّد المدة التي قضاها نائماً ، ولكنه يحس أن

نومه كان نومَ مريض • مسح وجهه بيده ، كأنما ليطرود الاحلام ورؤى
الليل • ولكنه حين أراد أن يضع قدمه على أرض الغرفة أحس أن جسمه
كله كان محطماً تحطيمًا • ان أعضائه المتعبّة ترفض أن تطاوعه ، وان فى
رأسه صداعا ، وان كل شيء من حوله يدور • جسمه يرتعد من البرد
تارة ، ويحترق تارة أخرى • ثم عاد اليه وعيه ، وعادت اليه ذاكرته ،
فاختلج قلبه حين عاش بخياله تلك الليلة كلها مرة أخرى • بلغ قلبه من
شدة الخفقان حين تذكر تلك الليلة ، وبلغت احساساته من القوة والجدّة
والنضارة والطرّوة أنه خيّل اليه أن كاترين لم تتركه منذ ساعات طويلة ،
بل منذ دقيقة واحدة • لمّا تجف عيناه بعد ، أو لعل هذه الدموع جديدة
تندفق من ينبوع فى روحه الحارة ! والشئ الغريب أن آلامه كانت عذبة

فى نفسه ، رغم شعوره بأنه ما كان لكيانه كله أن يحتمل صدمة كهذه الصدمة • وفى لحظة من اللحظات اعتراه ما يشبه الشعور بالموت ، فكان مستعدا لأن يستقبله استقبال زائر حبيب • كانت أعصابه تبلغ من شدة التوتر ، وكان هواه يبلغ من قوة الغليان والاندفاع ، وكانت روحه تبلغ من فرط الحماسة أن الحياة وقد أهاجها هذا التوتر تبسود كأنها توشك أن تنفجر فتفنى فى لحظة وتزول الى الأبد •

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، ترجع ذلك الصوت المعروف ، جوابا على قلعه ، جوابا على ارتعاش قلبه ، ترجع ترجع تلك الموسيقى الداخلىة التى تغنى فى نفس كل انسان فى ساعات فرحه وسعادته • انه صوت كاترين الرزين ، الرنان كالفضة ، فعلى مقربة منه ، عند موضع رأسه تقريبا ، بدأ ذلك الصوت ينشد أغنية رخيمة حزينة فى أول الامر •• يعلو تارة ، ثم ينخفض وينطفئ تارة أخرى ، ثم يرتعش بهوى عارم ويمتد بحرا من حماسة وسيلا من أنغام قوية لا نهائية ، كالدقائق الأولى من سعادة الحب • ان أوردينوف يميز كلمات الاغنية أيضا : هى كلمات بسيطة ، رقيقة ، حنون ، قديمة ، تعبر عن عاطفة ساذجة بريئة هادئة صافية مضيئة • ولكن أوردينوف كان يفغل عن الكلمات ، فلا يسمع الا الإنغام • ثم هو يسمع من خلال الكلمات الساذجة التى يصحح بها الغناء كلمات أخرى ، كلمات يغلى فيها كل ما يضمه قلبه من صبوة ، وكل ما ترنو اليه روحه من شوق وتوق ، كلمات تلبى هواه ، فهى تارة آخر أنه من أنات قلب أضناه الحب ، وهى تارة فرحة الحرية ، فرحة الروح التى حطمت أغلالها وطارت وضاعة حرة طليقة فى الخضم اللانهائى ، خضم الحب ، هى تارة أولى العهود تقطعها الحبيبة على نفسها ، مع صلواتها ودموعها وهمسها السرى الخجول ، وهى تارة شهوة امرأة سكرى خلعت

العدار مبكرةً فرحةً بقوتها ، فلا حجب ولا سرّ ، تبختر أمام عينه
النشوى •••

نهض اوردينوف عن سريره دون أن ينتظر ختام الأغنية • فسرعان
ما توقف الصوت عن الغناء وناداه قائلاً :

— نعمت صباحاً يا حبيبى • انهض • تعال الينا • استيقظ للفرح
الوضاء • نحن نتنترك ، أنا ومولاي • نحن أناس فضلاء ••• وقد خضعنا
لمشيئتك • اطفىء الكره بالحجب ••• قل كلمة عذبة حلوة ! •••

خرج اوردينوف من الغرفة مستجيباً للنداء ، ومضى يذهب الى
جيرانه كانما على غير شعور • انفتح الباب أمامه ، وسطعت ابتسامة صاحبة
البيت الجميلة نيرةً كالشمس • لم ير فى تلك اللحظة ولا سمع الا
كاترين • ان حياته كلها وفرحته كلها قد انصهرت فى قلبه على الفور
صورةً وضاءةً هى صورة كاترين •

قالت وهى تصافحه :

— فجران انقضي على لقائنا • الفجر الثانى ينطفىء الآن • أنظر من
النافذة •••

ثم أضافت ، مبتسمة :

— فجران كفجرى الحب عند فتاة : الأول يصبغ خديها بحمرة
الخجل ، حين يأخذ قلبهما يخفق وحيداً ، والثانى يحرقها كاللهب ، بعد
أن تمسى خجلها الأول ، فهو يُنهد صدرها ويصعد الى وجنتها دما قانياً •
مالك تلبث على عتبة الباب ؟ أهلا بك وسهلاً • مولاي يحبك •••

قالت ذلك وضحكت ضحكة رنانة كومسيقى ، ثم تناولت يد
أوردينوف وأدخلته الغرفة • استولى الخجل على قلبه • ان اللهب الذى
كان يحرق صدره منذ قليل يبدو كأنه ينطفىء الآن • خفض عينيه محتاراً
•• كان يخاف أن ينظر اليها • لم ير كاترين قبل الآن على مثل هذه

الحال • ان الضحك والمرح يضيئان وجهها لأول مرة ، وقد جففا الدموع
الحزينة على أهدابها السود • يدها ترتجف فوق يده • ولو رفع بصره
لراى كاترين تحدق بعينيها المشرقتين الى وجهه الذى جهمه الاضطراب
والهوى ، مبتسمة ابتسامة الظفر •

وقالت أخيرا :

... هلاّ نهضت أيها الشيخ ! هلا قلت لضيفنا كلمة ترحيب ؟ ...
الضيف كالآخ ... فانهض أيها الشيخ المتكبر ... سلّم على الضيف ...
تناول يده البيضاء وأجلسه الى المائدة !

رفع أوردينوف عينيه • لكانه يشعر لأول مرة بوجود مورين • كانت
عينا الشيخ تحدقان اليه وكان الخوف من الموت قد أطفاهما • انقبض صدر
أوردينوف حين تذكر هذه النظرة ، التى سبق أن رآها تلتمع كالتماعها
الآن تحت الحاجبين الطويلين المقطبين اهتياجا وغضبا • شعر ببعض دوار
• • نظر حوله ، فأدرك عندئذ فقط كل شيء • ان مورين ما يزال راقدًا
فى سريره • وهو مرتد ثيابه كلها تقريبا ، كأنه كان قد نهض وخرج
فى الصباح • عنقه محاطة بوشاح أحر هو الوشاح الذى كان على عنقه قبل
ذلك • وفى قدميه بابوجان • واضح أن ألمه كان قد زال ، ولكن وجهه
لا يزال رهيب الشحوب والصفرة • جلست كاترين قرب السرير مسندة
ذراعها الى المائدة ، تنظر الى الرجلين صامتة • الابتسامة لم تفارق شفقتها •
وكان كل شيء كأنما تمّ بأمرها •

قال مورين وهو ينهض جالسا على السرير :

— نعم ... هو أنت ... نزيل بيتى ... أنا آثم فى حقك أيها
السيد ... لقد أسأت اليك مؤخرا حين عبثت بالبندقية ... ولكن من
ذا الذى كان يعلم أنك تصاب أنت أيضا بنوبات صرعة ... هذا يحدث

لى أنا ... (كذلك أضاف يقول بصوت أجس ، مرضى ، وهو يقطب حاجبيه ويشيح ببصره) • الشقاء ينزل على الانسان دون أن يطرق الباب مستأذنا بالدخول ، انه يتسلل تسلل اللصوص • ولقد أوشكت أن أعمد سكيناً فى صدرها هى (قال ذلك وهو يومئ الى كاترين) • أنا مريض ، وكثيراً ما تعتربنى النوبة • اجلس • أهلاً بك !

كان أوردنيوف ما يزال يحدق اليه ويتفرس فيه • صاح الشيخ نافذ الصبر :

— لماذا لا تجلس ؟ اجلس ... ما دام هذا يناسبها هى • لكأنما من سرور كما عشيقان ...

• جلس أوردنيوف •

تابع الشيخ يقول ضاحكاً كاشفاً عن صفيين من أسنان بيضاء سليمة

— أ رأيت الى هذه الاخت التى لك ! ... امرحاً يا صديقى • • • قل لى أيها السيد : هل أختك هذه جميلة ؟ قل • • • أجب • • • انظر الى تألؤ وجنتيها • لماذا لا تنظر ؟ أعجب بالحلوة الجميلة • • • أظهر أن قلبك يتألم • • •

قطب أوردنيوف حاجبيه ، ونظر الى الشيخ حانقاً • فارتعش الشيخ لهذه النظرة • ان غيظاً أعمى يغلى فى صدر أوردنيوف • ان غريزة صادقة كغريزة الحيوانات تجعله يحزر أنه أمام عدو رهيب • لكنه مع ذلك لا يدرك ما الذى يجرى فى نفسه • لم يسعفه عقله •

قال صوت وراء أوردنيوف :

— لا تنظر •

التفت أوردنيوف • قالت كاترين ضاحكة :

— لا تنظر • قلت لك لا تنظر • اذا كان الشيطان هو الذى يحرضك،

فارحم حبيبتك !

وفجأة تسمرت وراه ، وعصبت عينيه بيديها • ولكنها لم تلبث أن سحبتهما ، وغطت بهما وجهها • ان حمرة خديها تظهر من خلال أصابعها • نزعَت يديها وحاولت ، وقد احمرت احمرارا شديدا ، أن تواجه ابتسامتهما ونظراتهما المستطلعة مواجهة جريئة بغير تحرج • ولكن الرجلين ظلّا ساكنين يرنوان اليها : فأما أوردنيوف فهو يرنو اليها بدهشة الحب كأن هذا الجمال الرهيب ينفذ الى قلبه لأول مرة ، وأما الشيخ فيرنو اليها بانتباه وبرود ، لا يعبر وجهه الشاحب عن شيء ، وانما تختليج شفتاه المزرقتان اختلاجا خفيفا •

اقتربت كاترين من المائدة وقد كفت عن الضحك • وأخذت تنضد الكتب والأوراق والمحبرة وكل ما كان على المائدة ، ثم تحملها جميعا الى المنضدة الصغيرة عند النافذة • لقد أصبحت أنفاسها سريعة متقطعة ، وأصبحت فى بعض اللحظات تستنشق الهواء عميقا ، كأن قلبها يخفق • ان صدرها يعلو ويهبط ببطئا كموجة • وخفضت عينها وتألأت أهدابها السود فوق خديها كابر دقيقة •

تمتم الشيخ :

— ملكة !

ودمدم أوردنيوف وهو يرتجف من رأسه الى قدميه :

— حبيبتى !

ولكنه تاب الى رشده اذ أحسّر بنظرة الشيخ تنصب عليه • لقد

سقطت هذه النظرة خلال ثانية سطوع برق : شرهة خبيثة باردة
مزدرية • أراد اوردينوف ان ينصرف ، ولكنه أحس انه مسمر في
مكانه بقوة لا تُرى • جلس من جديد • انه يشد في بعض اللحظات على
يديه ، ليتأكد من انه في يقظة ، لانه يحس ان كابوسا يجثم على صدره
ويخفه ، وانه ألعوبة في يد حلم أليم مرضى • ولكن الأمر الغريب انه
كان لا يريد أن يستيقظ من هذا الحلم •

نزعت كاترين عن المائدة غطاءها العتيق ، ثم فتحت صندوقا ، فأخرجت
منه مفرشا مطرزا بالحرير والذهب ، ففطت به المائدة • ثم تناولت من
الخزانة آنية فضية لحفظ الخمر ، كانت لجد جدا ، فوضعتها في وسط
المائدة ، ثم أعدت ثلاثة أقداح من الفضة ، واحد للضيف ، وواحد لرب
البيت ، وواحد لها • وبعد ذلك نظرت الى الشيخ والى اوردينوف مفكرة
ساهرة • قالت :

— من منا يحب من ؟ اذا كان واحد منا لا يحب آخر ، فهذا الآخر
أنا أحبه وسيشرب قدحه معي • انى أحبكما كليكما ، حبّ القريب
لل قريب • فلنشرب معا للحب والسلام !

قال الشيخ بصوت أشوه :

— فلنشرب ، ولنفرق في الخمرة أفكارنا القائمة • صبي ياكاترين !

سألت كاترين وهي تنظر الى اوردينوف :

— وأنت ، هل تريد أن أصب لك ؟

فقدم اوردينوف قدحه دون أن ينطق بكلمة •

قال الشيخ وهو يرفع قدحه :

— انتظري ••• اذا كان لأحد رغبة ما ، فلنحقق هذه الرغبة !

تلاطمت الكئوس وشرب الثلاثة •

قالت كاترين متجهة بكلامها الى رب البيت :

- والآن فلنشرب نحن الاتنين • فلنشرب اذا كان فى قلبك حنان
على " وحب لى • لنشرب تحية" للمساعدة التى عشناها ••• تحية" للسنين
الماضيات ، تحية" للهناء والحب ! مرنى اذن أن أصب لك اذا كان قلبك
يحترق هيأما بى !

قال الشيخ ضاحكا وهو يمد قدحه من جديد :

- خمرك قوى يا جميلتى ، ولكنك لا تزيدى على أن تبلى به
شفيتك بلا •

- سأشرب قليلا ، أما أنت فأفرغ قدحك حتى الثمالة • لماذا
تعيش مع أفكار حزينة يا شيخى ؟ ذلك لا يزيد على أن يعذب قلبك !
الافكار تنشأ من الألم ، والألم ينادى الافكار ، فاذا كان الانسان سعيدا لم
يفكر قط ! اشرب اشرب أيها الشيخ ، أغرق أفكارك فى الخمر •

- حزنك عظيم يا حمامتى البيضاء ، وأنت تريدى أن تتخلصى منه
دفعة واحدة • اننى أشرب معك يا كاترين • وأنت ، أيها السيد ، أتأذن
أن أسألك هل فى قلبك حزن ؟

تمتم أوردينوف يقول دون أن يحول بصره عن كاترين :

- نعم ، ولكننى أخفيه فى اعماق نفسى •

قالت كاترين :

- هل سمعت أيها الشيخ ؟ لقد ظللت زمنا طويلا لا أعرف نفسى ،

ولكننى عرفت بعدئذ كل شيء ، تذكرت كل شيء ، عشت الماضى كله من جديد •

قال الشيخ مفكرا :

- نعم ، انه لشيء حزين أن يتذكر المرء الماضى ، ما مضى فهو كالخمر الذى 'شرب' ... ما نفع السعادة الماضية ... متى بلى التوب وجب أن 'يرمى' ...

قالت كاترين ضاحكةً بينما تدلت على أهدابها عبرتان كبيرتان تشبهان الماس :

- لا بد عندئذ من توب جديد • هل فهمت أيها الشيخ ... أنظر لقد دفنت فى كأسك دموعى •

قال أوردينوف متهدج الصوت من الانفعال :

- وسعادتك ، هل اشتريتها بحزن كثير ؟

قال الشيخ :

- لعل عندك ، أيها السيد ، سعادةً كثيرة تريد أن تباعها ! ما هذا الذى تتدخل فيه ؟

قال الشيخ ذلك وانفجر يضحك ضحكاً خيئاً على حين فجأة ، وينظر الى أوردينوف غاضباً •

قالت كاترين :

- اشتريتها بما اشتريتها به ... فبعضهم يرى الثمن باهظاً وبعضهم يراه بخساً ... واحد يريد أن يبيع كل شيء وأن لا يخسر شيئاً ، وآخر لا يعد بشيء ، ولكن القلب المطواع يتبعه ... وأنت دعك أنت من الملامات

(أضافت ذلك متجهة الى أوردینوف بنظرة حزينة) • صب في كأسك
خمرأ أيها الشيخ • واشرب تحية لسعادة ابنتك ، لسعادة عبدتك الرقيقة
العذبة الطيعة ، كما كانت حين عرفتك أول مرة ••• ارفع كأسك !

قال الشيخ وهو يتناول الخمر :

— لك ما تشائين ! واملئي كأسك اذن •

— انتظر أيها الشيخ ، لا تشرب بعد ، دعني أقول لك شيئا قبل أن

تشرب •••

كانت كاترين مسندة ذراعيها الى المائدة ، تحديق الى الشيخ بعينين
محمومتين • ان عزيمة غريبة تسطع في نظرتها • حر كاتها جميعا هادئة ،
اشارات متقطعة ، سريعة ، غير متوقعة • انها كمن يحترق بنار • ولكن
جمالها يعظم بالانفعال والانتعاش • وشفتاها المنفرجتان تكشفان عن صفين
من أسنان بيضاء كاللآلى • وطرف صغيرتها المقتولة حول رأسها ثلاث مرات
متهدل على أذنها اليسرى باهمال • وعرق قليل يخضل صدغيها •

— اقرأ هنا يا صديقي ، اقرأ في راحة يدي قبل أن يظلم فكريك •
اليك يدي البيضاء فاقرا في راحتها • ما أخطأ الرجال في بلدنا حين
سموك ساحرا • أنظر في يدي ايها الشيخ وحدثني عن حظي الحزين •
ولكن حذار أن تكذب ! قل : هل ستكون ابنتك سعيدة ؟ أم تراك سوف
لا تفقر لها ، وسوف تدعو عليها بسوء الطالع ؟ هل سيكون لي ركن دافئ
أعيش فيه سعيدة ، أم سأظل حياتي كلها كالطائر المهاجر أبحث لي عن
مكان بين الناس الاخيار ؟ قل لي من هو عدوي ، ومن الذي يحبني ، ومن
يهييء لي الضر ؟ ••• قل لي هل سيظل قلبي الفتى الحار يحيا وحيدا ،
أم أنه سيجيد القلب الذي يخفق معه للفرح ••• الى أن يحل شقاء

جديد ؟ ... قل لى : فى آية سماء زرقاء ، وراء اى بحر ، وسط اية غابة ، يقيم صقرى ؟ أهو ينتظرنى مشتاقاً نافد الصبر ، أهو يجنبى كثيرا ، ام تراه سيكشف عن حبى قريبا ؟ ... هل سيخدعنى ويخوننى أم لا ؟ وقل فى الوقت نفسه ، قل لى آخر مرة أياها الشيخ ، هل سبقى معامدة طويلة فى مسكنا البائس هذا نقرأ كتباً شيطانية ؟ ... قل لى هل ستحين اللحظة التى أودعك فيها شاكرة لك انك أطعمتنى وحكيت لك قصصا .. ولكن حذار ثم حذار ... قل الحقيقة كلها ، ولا تكذب ! لقد آن الآوان •

كانت حميماًها تزداد على قدر امعانها فى الكلام ، ولكن الاهتياج لم يلبث أن حطم صوتها ، كأن زوبعة عصفت بقلبها • عيناها تسطعان ، وشفتها العليا تختلج قليلا • مالت على الشيخ من فوق المائدة ، وأخذت تحددق الى عينيه المضطربتين باتباه نهم •

سمع أوردينوف دقات قلبها حين توقفت عن الكلام...أطلق صرخة حماسة وهو ينظر اليها ، وأراد أن ينهض عن المقعد • ولكن النظرة السريمة العابرة التى ألقاها عليه الشيخ سمّته فى مكانه من جديد • ان مزيجاً غريباً من الاحتقار والسخرية والقلق والبرم ، ومن الاستطلاع الخبيث الشرير الماكر فى الوقت نفسه ، كان يسطع فى تلك النظرة الحاطفة السريمة التى كانت تُرعى أوردينوف فى كل مرة ، وفى كل مرة كانت تملأ قلبه غيظاً وغيظاً عاجزاً •

كان الشيخ ينظر الى كاترين مفكراً مستطلماً محزوناً • انه مصعوق القلب ، ولكن ما من عضلة فى وجهه تختلج • فلما أنهت كلامها لم يزد على أن ابتسم • ثم قال :

- تريدن أن تعرفى أشياء كثيرة مرة واحدة ، يا طائرى الصغير

الذى لم يكده يخرج من العيش ! صبي لى اذن بمزيد من السرعة فى هذا الكأس العميق • ولنشرب أولا تحيةً للسلام ••• والا فان عينا سوداء معتكرة ستفسد علينا آمياتنا ••• ان الشيطان قوى قدير ! •••

رفع الشيخ كأسه وشرب • فكلما أمعن فى الشراب أمعن وجهه فى الشحوب والاصفرار • عيناه حمراوان كالجمر • ان يريقهما المحموم ، وان ازرقاق وجهه ينذران بأن نوبةً جديدةً توشك أن تعتريه •

وكان الخمر قويا ، فكل كأس جديدة يشربها أوردينوف ، كانت تزيد عينيه زيفانا • ان دمه المحموم المشتعل لا يطيق احتمال مزيد من الخمر • كان عقله يضطرب ، وكان قلقه يشتد •

صبَّ أوردينوف لنفسه خمرا وجرع جرعة ، لا يعلم ماذا يفعل ولا يدرى كيف يهدى ، هياجه المتزايد • ان دمه يجرى فى شرايينه بمزيد من السرعة أيضا • كان كمن يهدى ، فهو لا يكاد يستطيع أن يدرى مايجرى حوله رغم شدة اهتمامه به وانتباهه اليه •

فرع الشيخ كأسه بالمائدة فى صحب ، وهتف يقول :

— صبي يا كاترين ، صبي أيضا أيتها البنت الشريرة ! املئى الكأس الى آخره • نوّمى الشيخ حتى الموت ! صبي أيضا صبي يا جميلتى •• وأنت لماذا لم تشرب الا قليلا جدا ؟ ••• أتحسب أنتى لم الأحظ ذلك ؟

أجابته كاترين بكلام لم يسمعه أوردينوف ••• لم يدع لها الشيخ أن تكمل كلامها • أمسك يدها ، كأنه أصبح لا يقوى على أن يجلس فى صدره كل ما كان يثقل صدره • ان وجهه شاحب ، وان عينيه تظلمان تارة ، وتسطعان بهريق قوى تارة ، وان شفثيه الصفراوين تختلجان • قال بصوتٍ يسمع المرء فيه فرحا غريبا فى بعض اللحظات :

- هاتى يا جميلتى ، هاتى . سأقول لك الحقيقة كلها . أنا ساحر
يا كاترين . ما أخطأ ظنك : قلبك الذهبى ألهمك الحقيقة . غير أن هناك
أمر لم تفهميه : هو أنى ، أنا الساحر ، لست بمن يعلمك العقل . ان
رأسك ثعبان ماطر ، رغم أن قلبك مليء بالدموع . سوف تهتدين الى
طريقك بنفسك ، سوف تتسللين بين الشقاء . فأحياناً تتغلبين بالعقل ، فإذا
لم يكف العقل ، بهرت بالجمال . تثيرين الفكر ، تحطمين القوة ، فإذا
القلب ينشق ولو كان من برونز وتسألين : هل ستزل بك مصائب .
هل سيلم بك شقاء وعذاب ؟ ان العذاب الانسانى أليم ، ولكن الشقاء لايلم
بالقلب الضعيف . وشقاؤك يا جميلتى سيكون مثله كمثلته خطي على رمل:
فسرعان ما تغسله الامطار ، وتجففه الشمس ، وتمحوه الريح ! انتظري
. . . سأقول لك مزيداً من القول . أنا ساحر . من ستحيينه ، ستكوينين له
عبدة . أنت نفسك سترهين حريرتك ثم لا تستردينها ولكنك لن
تسطيعي أن تكفى عن الحب لحظة يحين الأوان . سوف تبذرين بذرة ،
فيجنى الذى أغواك السبل كله يا طفلى الحلو ، يا رأسى الذهبى ،
لقد خبات فى كأسى عبرة من عبراتك تشبه لؤلؤة ، ولكنك أسفت عليها !
ثم سكبت مائة عبرة ! ولكن ما ينبغي لك أن تأسفى على هذه العبرة ، على
هذا الندى السماوى . لأنها ستعود اليك ، ثقيلة مزيداً من الثقل ، تلك
العبرة التى تشبه لؤلؤة ، ستعود اليك فى ليلة غير ذات نهاية ، ليلة عذاب
مر ، حين توافيك فكرة عكرة فتأخذ تأكلك أكلاً . وعند ذلك ، من أجل
تلك العبرة ، ستسقط على قلبك المحترق ، عبرة شخص آخر ، عبرة من
دم ، حارة حرارة رصاص منصهر . سوف تحرق هذه العبرة تحرق
الأبيض حتى تصل منه الى الدم ، والى أن يطلع نهار كالحلحلى حزين قائم
جهم ، ستظلين تغليبين على فراشك تاركةً لدمك القانى أن يسيل ، ولن
تبرئى من جرحك النازف الى الفجر التالى . صبي يا كاترين ، صبي

أيضا يا حمامتى ، اسقيني جزاء ما أسديت اليك من نصائح ... وما انت
فى حاجة الى معرفة المزيد ... ولا خير فى تبدير الكلام سدى بغير
طائل ...

كان صوته يضعف ويرتجف • وكان نشيخ بهم أن يخرج من
صدره • صبّ خمرا ، وأفرغ فى جوفه كاسا اخر شربه بشراهة • وقرع
المائدة بالكأس مرة أخرى • وعادت نظرتة المضطربة تسطح من جديد •
هتف يقول :

– عيشى كما تريدان ان تعيشى ! ما مضى فقد مضى • صبّى أيضا ••
صبّى حتى يسقط رأسى ، حتى تفنى روحى كلها ••• صبّى حتى أنام
لىالى طويلة ، وحتى افقد الذاكرة فقدانا تاما •• صبّى صبّى ايضا
يا كاترين !

ولكن يده التى تمسك الكأس تبدو كأنها مخدّرة ، فهى لا تتحرك •
كان يتنفس تنفسا ثقيلًا ، كان يتنفس بمشقة • مال رأسه ••• ومرة
اخيرة القى على اوردينوف نظرة كابية • وحتى هذه النظرة لم تلبث ان
انطفأت • وسقط حاجباه أخيرا ثقيلين كالرصاص • وشاعت فى وجهه
صفرة كصفرة الموتى • واحتلجت شفثاه بضع لحظات أيضا ، وارتجفتا
كأنه يبذل جهدا من أجل أن يقول شيئا • وفجأة رثيت دمعة كبيرة تتعلق
بأهدابه ثم تسقط وتسيل بطيئة على خده الشاحب •••

لم يطق أوردينوف صبرا • فنهض ، وسار نحو كاترين مترنح
الخطى • تناول يدها • ولكنها لم تنظر اليه ••• حتى لكانها لا تراه ولا
تعرف من هو •••

كانت هى أيضا كمن فقد وعيه ، وكان يبدو أن فكرة واحدة

تسفلها ، فكرة واحدة • ارتمت على صدر الشيخ الوسنان ، وأحاطت عنقه
بذراعيها ، وثبتت فيه نظرتها المشتعلة حتى لكانهما أصبحا كائنا واحدا ••
كان يبدو أنها لا تشعر بأن أوردنيوف ممسك يدها • وأخيرا التفتت نحو
الفتى ، وألقت عليه نظرة طويلة نافذة ، كأنها فهمت أخيرا • فظهرت على
شفتيها ابتسامة حزينة الیمة • وتمتمت تقول :

— اذهب • أنت سكران وشريد • أنت لست صديقي •

وعادت تلتفت نحو الشيخ ، وثبتت فيه بصرها • لكانها ترصد كل
خفقة من خفقات قلبه ، وتهدهد بنظرها نومه ، وتخفى أن تنفس ،
وتحضن قلبه المتأجج ••• وكان فى كيانها كله من الاعجاب العاشق الموله ،
ما جعل أوردنيوف يستبد به اليأس والحنق والفضب على حين فجأة •
ناداها وهو يضغط يدها بعنف :

— كاترين ! كاترين !

ان الألم الذى يشعر به أوردنيوف ينعكس فى وجهه • التفتت
كاترين ، وألقت على أوردنيوف نظرة تلبخ من التعبير عن السخرية
والتحقير أنه أحسن بساقيه تشيان تحته • ثم أومأت الى الشيخ النائم ،
ونظرت الى أوردنيوف مرة أخرى نظرة باردة مزدرية •

قال لها أوردنيوف حانقا أشد الحنق :

— ماذا ؟ لسوف يقتلك ! •••

وكان جنيا وسوس له أنه فهمها • فقال :

— سأشتريك من مولاك يا جميلتى ، اذا كنت فى حاجة الى روحى !

لن يقتلك •

ان الابتسامة الصامته التي كان تجعد أوردينوف لا تتحول عن وجه كاترين • وبدون أن يعرف ماذا يفعل ، أخذ يتلمس يديه فينتزع من الجدار خنجرا يملكه الشيخ • ظهرت الدهشة في وجه كاترين ، ولكن الغضب والاحتقار لاحا في عينيها في الوقت نفسه وقد ازدادا عنفا وقوة •

شعر أوردينوف بألم وهو ينظر اليها ••• ان قوة غامضة تدفع يده • اخرج الخنجر من غمده • ان كاترين تتابعه بنظراتها ساكنة حابسة انفاسها •

نظر أوردينوف الى الشيخ •

فخيل اليه في تلك اللحظة أن الشيخ يفتح عينيه ببطء ، وينظر اليه مبتسما • التقت أعين الرجلين • حذق أوردينوف الى العجز بضع دقائق ساكنا لا يتحرك •• وفجأة تراءى له أن كل وجه الشيخ يضحك ، وأن هذا الضحك الشيطاني ينفجر مدويا في الغرفة آخر الامر • وهذا خاطر اسود ، كريبه ، يتسلل في رأسه تسلل أعمى ••• ارتجف ••• أفلت الخنجر من يديه ، وسقط على أرض الغرفة مقرقا •

أطلقت كاترين صرخة ، كأنها تستيقظ من كابوس قاتم أليم ••• نهض الشيخ عن سريره ببطء وقد اصفر اصفرارا شديدا • ركل الخنجر بقدمه الى ركن من الغرفة غاضبا حانقا ••• كانت كاترين شاحبة ساكنة كأنها ميتة ••• ان ألما رهيبا لا يطاق يرتسم على وجهها • وها هي ذى ترتدى على قدمي الشيخ وهي تصرخ صرخة تشق النفس وتكاد تسقط مغشيا عليها •

— ألكسى ! ألكسى !

كذلك انطلقت هاتان الكلمتان من صدرها المخنوق •

حضنها الشيخ بذراعيه القويتين ، وشدها الى صدره شدا قويا • أخفت رأسها في نحر الشيخ ، فأطلق الشيخ عندئذ ، بكل قسمات وجهه ، ضحكة تبلغ من قوة التعبير عن الظفر والانتصار ، وتبلغ من شدة الهول أن الذعر استولى على أوردينوف • المكر ، الحساب ، الطغيان البارد المستبد القيور ، السخرية بقلبه الممزق ، ذلك كله سمعه أوردينوف في تلك الضحكة •
دمدم يقول وهو يرتجف خوفاً :

— « مجنونة »

• وولى هاربا •



الساعة الثامنة من صباح الغد كان أوردينوف يطرق باب ياروسلاف ايلتشش صاحب الوجه مهتاج النفس • لما ييل من اضطراب الليلة البارحة • لو سألته لماذا جاء الى ياروسلاف ايلتشش لما عرف بماذا يجيبك • فما ان فتح له الباب حتى تقهقر من الدهشة ، ثم تسمر فى مكانه عند العتبة جامدا ، اذ رأى مورين فى الغرفة • كان الشيخ أشد شحوبا من أوردينوف أيضا ، لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، مهدود الجسم من المرض • ومع ذلك كان يرفض أن يقعد رغم أن ياروسلاف ايلتشش يكرر دعوته الى الجلوس سعيدا بزيارته كل السعادة •

تهلل ياروسلاف ايلتشش مبتهجا حين رأى أوردينوف ، ولكن فرحه تبدد فى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، واستبد به نوع من الضيق فجأة ، عند منتصف الطريق بين المائدة والكرسى المجاور ، فهو لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يفعل • ولقد أدرك أنه من غير اللائق أن يدخن الغليون فى مثل هذه اللحظة ، ومع ذلك ظل من فرط اضطرابه يدخن ما استطاع ، بل يدخن بشيء من الحذقة أيضا •

دخل أوردینوف الغرفة أخيراً • وألقى نظرة خاطفة على الشيخ • طاف في وجه الشيخ شيء يذكر بالابتسامة الخيثة التي رآها أوردینوف في وجهه أمس ، والتي تثير ذكراها فيه الارتعاد والحق • ولكن كل تعبير عن العداوة ما لبث أن زال ، وعاد الى وجه الشيخ هدوءه وسكونه الذي لا يمكن التناز اليه • وسلم على أوردین بانحناءة كبيرة •

هذا المشهد كله أيقظ أخيراً شعور أوردینوف ، فحذر الى ياروسلاف ايلتش يريد أن يفهم خطورة الموقف • اضطرب ياروسلاف ايلتش وشعر بحرج •

قال أخيراً :

— ادخل ، ادخل يا صديقي العزيز فاسيلي ميخائيلوفتش • أفرحني بزيارتك وشرف بحضورك جميع هذه الأشياء التافهة •••

قال ياروسلاف ايلتش وهو يشير الى ركن في الغرفة • انه أحمر الوجه كقرنفلة ، وقد بلغ من الاضطراب والحرج أن الجملة المتفخمة التي بدأها انقطعت فجأة ، وها هو ذا يجبر كرسيه الى وسط الغرفة ، فيحدث ضجة كبيرة •

— ألا أزعجك يا ياروسلاف ايلتش ؟ كنت أريد ••• دقيقتين لا أكثر •••

— ما هذا الذي تقوله ؟ أنت تزعجني يا فاسيلي ميخائيلوفتش ؟ هلاً قبلت قدحاً من الشاي من فضلك ••• من يخدم هنا ؟ أنا واثق أنك لن ترفض فنجاناً ثانياً •••

أضاف الجملة الأخيرة متجهماً بها الى مورين ، فأوماً مورين برأسه

معبراً عن موافقته على شرب قدح آخر •

دخل شرطى ، فأمره ياروسلاف ايلتشس بلهجة قاسية أن يحضر ثلاثة أقذاح من الشاي ، ثم أقبل يجلس قرب أوردينوف • ظل بضع دقائق يدير رأسه يمنة ويسرة كقطعة من خزف ، متجها الى مورين تارة والى أوردينوف تارة أخرى • كان واضحا انه يريد أن يقول شيئاً هو فى نظره حرج كل الحراجة بالنسبة الى أحد الرجلين على الأقل ، ولكنه رغم كل جهوده ظل عاجزا عن أن ينطق بكلمة •••

وكان يلوح على أوردينوف أنه فى ضيق وحرَج هو أيضا • وجاءت لحظة فاذا بالرجلين كليهما يأخذان بالكلام معاً فى آن واحد ••• أما مورين الصموت ، الذى كان ينظر اليهما بكثير من حب الاستطلاع ، فقد انفتح فمه ببطء ، كاشفاً عن كل أسنانه •••

قال أوردينوف مخاطباً الشيخ :

- جئت لأقول لك اننى على أثر ظروف مزعجة جدا أرانى مضطرا الى ترك منزلك ، و •••
فقاطعه ايلتشس صائحا :

- شىء غريب جداً ••• لقد طار عقلى من الدهشة حين أبلغنى هذا الشيخ المحترم قرارك فى هذا الصباح ولكن •••

سأله أوردينوف مدهوشاً وهو ينظر الى مورين :

- أبلغك قرارى ؟

كان مورين يلاعب لحيته ويتسم •

قال ياروسلاف ايلتشس مؤكداً :

- نعم .. بل لعلى مخطيء ... ولكننى أستطيع أن أحلف لك
بشرفى أن أقوال هذا الشيخ المحترم لم تتاولك بأى سوء .

احمر ياروسلاف ايلتش ولم يستطع أن يسيطر على انفعاله الا
فى عناء .

وكانما ضاق مورين ذرعاً بعدم المبالاة باضطراب رب البيت ، فتقدم
خطوة الى أمام ، وبدا يقول وهو يحيى أوردينوف بأدب :

- اليك المسألة يا صاحب السيادة . انك تعلم بنفسك يا سيدى
أنا أنا وزوجتى كان يمكن أن نسعد من أعماق قلبنا ، وكان يمكن أن
لا نتجرأ على قول كلمة واحدة ... ولكنك ترى بنفسك كيف تجرى
حياتى ... انك ترى أننى أكاد أحتضر .

قال مورين ذلك وعاد يلاعب بأصابعه لحيته .

شعر أوردينوف بأنه يوشك أن يهوى على الأرض .

- نعم ... نعم ... لقد سبق أن قلت لك ذلك . انه مريض .
تلك نازلة ألت به . أردت أن أقولها بالفرنسية . ولكن اعذرنى . ان
لسانى لا يجرى طلقاً بهذه اللغة ... يعنى ...

- نعم ... نعم ، يعنى ...

حيّاً كل من أوردينوف وياروسلاف ايلتش صاحبه تحية صغيرة ،
وهما جالسان على كرسيهما ، ثم استأنف ياروسلاف ايلتش كلامه يقول:

- ثم اننى سألت هذا الرجل الشريف عن الأمر تفصيلاً ، فقال لى
ان مرض هذه المرأة ...

وهنا ألقى ياروسلاف ايلتشن ، المرهف الشعور ، نظرة سائلة على

مورين •

– أقصد أن مولاتنا •••

ثم لم يلح مزيدا من الاحلاح ، بل عاد يخاطب أوردينوف فيقول :

– نعم ••• ان صاحبة البيت ••• أقصد صاحبة البيت الذى تقيم
أنت فيه وستركه ••• امرأة مريضة • هو يقول انها تضايقت فى أعمالك
••• وأنت نفسك ••• لقد أخفيت عنى أمرا هاما جدا يا فاسيلي
ميخائيلوفتش •••

– ما هو هذا الأمر ؟

أجاب ياروسلاف ايلتشن بهمس تقريبا ، وبصوت يُسمع فيه شيء
من العتب الى جانب التسامح :

– أمر البندقية •

وأسرع يستأنف كلامه فيقول :

– أنا أعرف كل شيء • حكى لى كل شيء • لقد كنت أنت نبلا
كل النبيل حين غفرت له جريمته فى حقت ، وهى جريمة لم يتعمدها ولا
أرادها ••• أحلف لك ••• لقد رأيت دموعا فى عينيه !

احمر وجه ياروسلاف ايلتشن من جديد ، والتمعت عيناه واضطرب
على كرسيه منفلا أشد الانفعال •

قال مورين مخاطبا أوردينوف ، بينما أخذ ياروسلاف يحدق اليه
وقد تخلص من اضطرابه :

– أنا ... أقصد ... نحن يا سيدى ، أنا ومولاتى ، ندعو لك الله
دائما . ولكنك تعرف بنفسك يا سيدى أنها امرأة مريضة ، حمقاء ...
وأنا امرؤ لا أكاد أستطيع التماسك ...

قال أوردينوف وقد نفذ صبره :

– ولكننى مستعد ... كفى ... أرجوك ... فورا اذا أردت .

– كلا يا سيدى . نحن مغتبطان بوجودك جدا (قال مورين ذلك
وهو ينحنى انحناءة كبيرة) . أنا يا سيدى ... كنت أريد أن أقول لك
الامر كله فورا . هى ، يا سيدى ، قريبة لى ... تمت الى بشىء من
قربى ... قربى بعيدة ... انها كذلك منذ الطفولة ... رأس تعصف
به الأهواء .. لقد نشأت وترعرعت فى الغابة .. كفلاحة .. بين الرجال
الذين يجرون المراكب ، والعمال الذين يعملون فى المصنع ... وفجأة
احترق منزلهم ... هلكت أمها فى الحريق ، وهلك أبوها أيضا ...
أقصد من يقال له أبوها ... انها مستعدة لأن تروى لك هذه الحكايات ...
أنا لا أتدخل فى هذا الأمر ... ولكن يجب على أن أقول لك ان أطباء
من موسكو قد فحصوها ... أعنى يا سيدى ... هى مجنونة تماما ...
هذه هى المسألة . أنا وحدى معها ، وهى وحدها معى . نعيش ، نصلى ...
ونأمل ... ولكننى لا أعارضها فى يوم من الأيام ...

كان وجه أوردينوف مضطربا أشد الاضطراب . وكان ياروسلاف
ايلتش ينقل بصره بين الرجلين ، فينظر الى هذا تارة والى ذاك تارة
أخرى .

استأنف مورين كلامه وهو يهز رأسه فى وقار :

– ولكن لا .. يا سيدى .. هى كذلك .. رأسها يبلغ من الجنون

أنها فى حاجة دائمة الى حبيب ، الى انسان تناديه حبيبي ... وأنا يا سيدى
رأيت ... اغفر لى أقوالى الحمقاء ... (أضاف مورين ذلك وهو يحيى
صاحبه ويمسح لحيته) ... رأيت كيف كانت تذهب اليك ، ورأيت كيف
أردت ، سيادتك ، أن تربط مصيرك بمصيرها ...

احمر وجه ياروسلاف ايلتش حتى صار بلون الأرجوان ، ونظر
الى مورين عاتبا . أما أوردينوف فقد كان لا يستطيع الاستقرار على
الكرسى .

— لا يا سيدى ... أعنى ... ليس هذا هو الأمر ... أنا ياسيدى ...
أنا فلاح بسيط ... نحن عبيدك (أضاف ذلك وهو ينحنى الى الارض) ،
ونحن ندعو لك الله دائما ، أنا وزوجتى . نحن يكفيننا أن يكون لدينا
ما ناكله ، وأن تكون صحتنا بخير ، هذا وحده يرضينا ... أنت تعرف
ذلك بنفسك يا سيدى ... فارجحنا يا سيدى ... وما عسى أن يحدث
إذا أصبح لها عشيق جديد ؟ اغفر لى هذه اللفظة البشعة ... أنت رجل
مهذب يا صاحب السعادة ... انت رجل ذو كبرياء ، وذو حمية ... أما
هى ، ياسيدى ، فهى طفلة ، طفلة بنغير عقل ... سرعان ماتقع فى الاثم ...
هى قوية البنية ، وأنا مريض دائما ... ولكن ماذا تريد ! ... ان الشيطان
يتدخل فى الأمر ... انا اقص عليها حكايات ! ... نعم يا سيدى . انا
أنا وزوجتى ندعو الله لك بالخير ، لا نكف عن ذلك . هى جميلة ، نعم ،
ولكنها ليست آخر الأمر الا فلاحه ، الا امرأة بسيطة ... انها لا تحسن
غسل جسمها ... وهى حمقاء ، تصلح لى أنا الفلاح ... أما أنت ياسيدى
فلا تصلح لك ... وما أكثر ما ندعو لك الله بالخير ! ...

هنا انحنى مورين انحناء كبيرة ، وظل على هذه الحال من الانحناء
مدة طويلة ، دون أن ينتصب ، ماسحا لحيته بكمه .

لم يعرف ياروسلاف ايلتش ماذا يجب عليه أن يفعل •
قال مضطربا كل الاضطراب :

- نعم ، ان هذا الرجل الشهم قد حدثني عن شيء من سوء التفاهم
وقع بينكما فيما يظهر • لا اجرؤ ان أصدق ، يا فاسيلي ميخائيلوفتش •••
سمعت أنك ما تزال مريضا (كذلك قطع ياروسلاف كلامه بسرعة ، منفلا
جدا ، حين لاحظ اضطراب أوردينوف) •

ألقى أوردينوف على مورين هذا السؤال فجأة :

- كم لك على ؟

- ما هذا الكلام يا سيدى ••• ما نحن ببيعة المسيح ! ••• لماذا
تهيننا يا سيدى ؟ هلا خجلت من مثل هذا السؤال ••• هل أسأنا اليك ،
أنا أو امرأتى ؟ ••• عفوك •••

- ولكن هذا أمر غريب يا صديقى ••• لقد استأجر غرفة عندكم
••• أفلا تشعر أنك برفضك هذا انما تهينه ؟ •••

بهذا الكلام تدخل ياروسلاف ايلتش ، معتقدا أن من واجبه أن
يبين لمورين أن فعله هذا غريب خال من اللباقة •••

- ولكن عفوك يا سيدى ••• ما هذا الكلام يا سيدى ••• أخطانا
فى حقتك ؟ لقد قمنا بكل شيء فى سبيل أن نهيب لك الراحة والمسرة ••
أرجوك يا سيدى •• ماذا ؟ أنحن أناس لا نعرف الوفاء ؟ •• لأن يعيش
بيننا ، ويقاسمنا طعامنا ، طعام الفلاحين ، فهيناً مريثاً ••• ما كان لنا أن
نقول شيئا فى هذا •• ولكن الشيطان تدخل فى الأمر •• أنا مريض ،
وزوجتى مريضة أيضا •• فما العمل ؟ كان يمكن أن يسعدنا وجوده معنا
كل السعادة ••• ولكننا سندعو لك الله بالخير ، أنا وزوجتى ! •••

مرة أخرى انحنى مورين انحناءة كبيرة • وظهرت في عيني
ياروسلاف ايلتش دمعة ، ونظر الى أوردينوف في حماسة وقال :

– ما أنبل هذه السجايا ! ما أعظم روح الضيافة المقدسة هذه التي
يحتفظ بها الشعب الروسى •

نظر أوردينوف الى ياروسلاف ايلتش نظرة غريبة من رأسه الى
قدميه • قال مورين :

– وأنا يا سيدى •• نعم •• هذه هى المسألة •••• روح الضيافة ••
هل تعلم ؟ اننى أقدّر الآن أن من الخير أن تبقى عندنا يوما آخر (قال
ذلك مخاطبا أوردينوف) • لا اعتراض لى على ذلك البتة •• ولكن زوجتى
مريضة •• آه لو لم تكن عندى زوجتى ! آه لو كنت وحيدا •••• اذن
لرأيت كيف أغتنى بك •• اذن لرأيت كيف أشفيك من مرضك ! اننى
أعرف وصفات طيبة •• حقا •• لعلك تبقى عندنا يوما آخر مع ذلك •

قال ياروسلاف ايلتش :

– فعلا •• أليس هناك دواء ما ؟

ولكن ياروسلاف ايلتش لم يتم كلامه •

كان أوردينوف ينظر اليه من قمة الرأس الى أخمص القدم حانقا
مدهوشا •

لا شك أن ياروسلاف ايلتش ائمان من أشرف الناس وأنبلهم ،
ولكنه فهم الآن كل شىء • يجب أن نعرف أن وضعه حرج جدا • أراد
لو ينفجر ضاحكا كما يُقال • ولو كان فى خلوة مع أوردينوف ، أى فى
اجتماع بين صديقين كهذين الصديقين ، لما استطاع أن يضبط نفسه ،

ولأخذه نوبة من مرح شديد لا قصد فيه ولا اعتدال ، ولكن ضحكه هذا ضحكا نبيلاً على كل حال ، حتى إذا انتهى الضحك صافح أوردينوف مصافحة ودية ، وحاول أن يقنعه مخلصاً بأن احترامه له قد ازداد ولم ينقص ، وأنه يقدره على كل حال ، لأن هذا في طبيعة الشباب .. ولكن ياروسلاف ايلتش فى وضع حرج الآن ، بسبب رهافة شعوره ، وشدة أدبه .. انه فى وضع حرج جدا ، لا يدري ماذا يفعل .

قال مورين وقد انتعش لسؤال ياروسلاف ايلتش :

— دواء ؟

ثم تابع يقول وهو يتقدم خطوة الى أمام :

— أنا يا سيدى ، أنا الفلاح النبى .. أقول .. أقول انك تسرف فى قراءة الكتب يا سيدى .. أقول انك أصبحت أذكى مما يجب . المثل عندنا يقول : تجاوز عقلكم العقل يا فلاحون .

قال ياروسلاف ايلتش بقسوة يقاطعه :

— كفى !

قال أوردينوف :

— أنا ذاهب . شكرا يا ياروسلاف ايلتش .

وأضاف يقول واعداء بتلية دعوة ياروسلاف ايلتش الذى لم يستطع أن يثنيه عن الانصراف :

— سأجىء اليك حتما . الوداع . الوداع ! ..

— وداعا ، سيادتك ... وداعا سيدى ! لاتنس .. زرنا أحيانا ..

لم يسمع أوردினوف مزيدا • وخرج كالمجنون •

لقد نفذ صبره ، وأصبح لا يطيق أن يحتمل أكثر مما احتمل •
كان كالليت • تجمد شعوره • أحس بالمرض يخنقه خنقا • ألا أن يأسا
باردا كالثلج كان يستولى على نفسه • أصبح لا يحس الا ألما أصم يخنقه
ويمزق صدره • ودَّ في هذه اللحظة لو يموت • اثنت ركبته تحته ،
فجلس قرب صف من الأشجار لا يتبه لا الى الناس الذين يمرون أمامه ،
ولا الى الجمهور الذي أخذ يتحلق حوله ، ولا الى نداءات وأسئلة من
يحيطون به • ولكن أوردينوف يسمع بين هذه الأصوات صوت مورين
على حين فجأة • فينهض رأسه • كان الشيخ قد شق طريقا اليه بعد عشاء •
ان وجهه الشاحب رصين واجم • ليس هو الآن ذلك الانسان الذي كان
يضحك عليه بفظاظة عند ياروسلاف ايلتش • نهض أوردينوف • تناول
مورين ذراعه وأخرجه من بين الجمهور •

قال مورين وهو ينظر اليه من جانب :

— أنت في حاجة الى أخذ أمتك •

ثم هتف يقول بعد ذلك :

— لا تحزن يا سيدى • أنت فى ريمان الشباب ، وما ينبغى أن.

تأس •••

لم يجب أوردينوف بشيء •

— أنت مستاء يا سيدى ؟ واضح أنك زعلان ••• ولكنك مخطئ •••

ان من حق كل انسان أن يحافظ على ما يملك •••

قال أوردينوف :

– أنا لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرف أسرارك ... ولكن هي ...
... هي

نطق أوردينوف بهذا ، وتدفقت دموع غزيرة من عينيه ، فمسحها
بكمه • ان حر كته ، ونظرته ، وارتجاف شفثيه المزرقتين ، ان كل شيء
يُشعر من يراه بأنه جن •

قال مورين مقطبا حاجبيه :

– لقد قلت لك الأمر ... هي مجنونة ... أما لماذا وكيف أصبحت
مجنونة ، فذلك شيء لا حاجة بك الى معرفته البتة ... كل ما هنالك أنها ،
وهي على ما هي عليه ، لي أنا • انني أحبها أكثر من حياتي ، ولن أهبها
لأحد •

برق لهيب في عيني أوردينوف • وقال :

– ولكن لماذا •• لماذا أحس أنا بأنني كمن فقد الحياة ؟ لماذا يتألم
قلبي ؟ لماذا عرفت كاترين ؟

ابسم مورين وأطرق يفكر ، ثم قال :

– لماذا ؟ لا أعلم •• النساء •• ليست النساء كقاع البحر ... يمكن
أن يفهمن أخيرا •• لكنهن ماكرات • صحيح يا سيدى أنها أرادت أن
تركني لتذهب معك (كذلك أضاف يقول ذاهلا) ... لقد ضاقت بالشيخ
... أخذت منه كل ما استطاعت أن تأخذ ! وقد أعجبت بك فورا ...
ولكن سواء أكننت أنت أم كان غيرك ... أنا لا أعارضها • لو طلبت مني
لبن العصفور لهيأته لها ... أصنع بنفسى عصفورا يدر لبنا ، اذا لم يكن

فى الكون عصفور كهذا ••• وهى مغرورة تحب الظهور ، وتحلم بالحرية
ولكنها لا تدرى هى نفسها مصدر عذاب قلبها ••• الأفضل أن تبقى الامور
كما هى ••• هيه يا سيدى ! انك ما تزال شابا فى ريعان الصبا ! قلبك
ما يزال حارا متوقدا ••• اسمع يا سيدى ••• ليس فى طاعة انسان ضعيف
أن يضبط نفسه وحده • لو أعطيته كل شىء ، لجاء من تلقاء نفسه ىرد كل
شىء ، حتى لو أعطيته نصف الكون • لو وهبت الحرية لاسان ضعيف ،
لأوثقها بيديه ، وأعادها اليك • لا قيمة للحرية عند قلب ساذج ••• ولا
يستطيع المرء أن يعيش مع طبع كهذا الطبع ••• أقول لك هذا كله لأنك
شاب فى ميعة العمر ••• ما أنت عندى ؟ لقد جئت ثم ذهبت ••• سيآن
أنت وغيرك • كنت أعلم منذ البداية ما سيقع • ولكن ما ينبغى أن أعارض
••• ليس على المرء أن يعترض أى اعتراض اذا أراد أن يحتفظ بسعادته
••• كل شىء يمكن أن يقع (كذلك تابع مورين تفلسفه) • حين يغضب
المرء يتناول خنجرا ، بل لقد يهجم أعزل اليدىن من السلاح محاولا أن
يمزق عنق عدوه ••• ولكن يكفى أن يوضع فى يدك خنجر ، وأن
يكشف لك عدوك عن صدره ، حتى تراجع •••

دخل الرجلان فناء المنزل • رأى التترى مورين من بعيد ، فخلع
طاقيته احتراما • ورشق أوردىنوف بنظرة خبيثة •

صاح مورين :

– هيه ••• هل الأم فى البيت •

– نعم فى البيت •

– قل لها أن تساعد فى نقل الأمتعة ••• وعاون أنت أيضا •

صعدا السلم • جمعت العجوز التي تخدم في بيت مورين ، وهي
في الواقع أمُ البواب ، جمعت أمتعة المستأجر وجعلتها في حزمة •
- انتظر • سأتيك أيضا بشيء بقي هناك ، وهو لك •

قال مورين ذلك ومضى الى غرفته • وعاد بعد دقيقة يمد الى
أوردينوف مخدة مطرزة هي المخدة التي جاءته بها كاترين حين كان
مريضا ، ويقول له :

- انها هي التي ترسل اليك هذه المخدة • والآن هيا انصرف ،
وحذار أن تعود الى هنا (أضاف ذلك هامسا) ، والا ساءت الأحوال •••

كان واضحا أن مورين لم يقصد أن يهين الرجل ، ولكن حين ألقى
عليه نظرة أخيرة ، فقد ارتسم على وجهه ، بالرغم منه ، تعبير عن الغضب
والاحتقار ؛ ثم أغلق الباب وراء أوردينوف باشمئزاز تقريبا •

وبعد ساعتين كان أوردينوف يستقر عند الألماني سيس • ان تينيش
لم تملك أن صاحت « آه » حين رأته داخلا • ثم لم تلبث أن استفسرت
عن صحته ، فلما علمت بمرضه ، أسرعته تعالجه •

وأظهر الألماني العجوز لصاحبه ، متباهيا ، أنه كان يتهايا لوضع اللافنة
عند باب العمارة ، لأن مدة الايجار المدفوع سلفا انما تنتهي في هذا اليوم •
كان العجوز لا يفوت فرصة تتيح له أن يشيد بالدقة الجرمية ، وبالأمانة
الجرمية •

مرض أوردينوف في ذلك اليوم نفسه • فلزم سريره ولم يتادده
الا بعد ثلاثة أشهر •

عادت اليه عافيته شيئا فشيئا وأخذ يخرج • ان الحياة في منزل

الالمانية رتيبة هادئة تجرى على وتيرة واحدة • لم يكن طبع الالمانى صعبا • وكانت تينيش الحلوة على خير ما يتمنى المرء أن تكون • ولكن الحياة فى نظر أوردينوف كانت تبدو فاقدة لونها الى الأبد • أصبح أوردينوف حالما ، سريع الاهتياج ، واصبحت حساسيته مرضية ، وشيئا فشيئا اخذت تسيطر عليه كآبة خطيرة جدا ، كآبة خيثة •••

اصبح لا يفتح كتبه اسابيع كاملة • وأصبح المستقبل يبدو له مظلمًا • وكانت موارده تشارف على نهايتها ، وهو لا يعمل شيئًا ، ولا يحفل بالندم • ولئن كانت حماسه القديمة للعلم وحميته السابقة والصور التى خلفها للماضى تعود الى الظهور أحيانا ، فانها كانت لا تزيد على أن تخنق طاقته • اصبحت الفكرة لا تستحيل عنده الى فعل • توقف الخلق • كأن تلك الصور جميعها كانت تتخذ فى أحلامه أبعادا ضخمة عن عمد ، لتسخر من عجز صاحبها نفسه • وكان فى ساعات حزنه يشبه نفسه ، على غير ارادة منه ، بتلميذ الساحر* ذلك الذى سرق من أستاذه الكلمة السحرية التى تأمر المكسنة بتفجير الماء ، فإذا هو يغرق فى الطوفان لأنه نسي كيف يقول : كفى •

تُرى هل ستستيقظ فى نفسه فكرة أصيلة ، كاملة ؟ ترى هل سيصبح عَلمًا من أعلام العلم ؟ لقد كان فى الماضى يؤمن بذلك على الأقل • والايمان المخلص الصادق ضمانته المستقبل • أما الآن فكثيرا ما يسخر من نفسه ومن ثقته العمياء ، وهو لا يتقدم خطوة •

كان منذ ستة أشهر قد خلق وألقى على الورق مخطط كتاب كان يعقد عليه آمالا لا حدود لها • كان هذا الكتاب يتناول تاريخ الكنيسة ، وقد خرجت من قلم أوردينوف نتائج جريئة • ها هو ذا الآن يعيد قراءة هذا المخطط ، ويفكر فيه ، ويعدّله ، ويدرسه ، ويبحث ، ثم يرميه أخيرا

دون أن يبني على أنقاضه شيئا • غير أن شيئا يشبه الصوفية أخذ يفزو نفسه • كان المسكين يحس الامه ويسأل الله أن يشفيه منها • لقد حكّت خادمة الالمانى ، وهى امراة عجور روسية تقية جدا ، ان الساكن كان يصلى ويبقى راكما عند عتبة الكنيسة ساعتين كاملتين •

ولم يكن أوردينوف يقول لاحد كلمة واحدة عما حدث له • ولكن العاصفة كانت تهب فى نفسه الجريحة أحيانا ، ولا سيما ساعة الشفق، حين يذكره صوت النواقيس بأول لقاء له معها ، انه يتذكر عندئذ العاطفة التى كان يجهلها حتى ذلك الحين ، والتى هزت صدره حين ركع قريبا لا يصنى الا الى خفقان قلبها الوجمل ، ولا يحس الا دموع الحماسة والفرح تنتشر على الأمل الجديد الذى يبرق فى حياته • عندئذ كان عذاب الحب يحرق صدره من جديد ، بينما يعانى قلبه ألما مرأ محموما ، وكأن حبه يزداد بازدياد حزنه •

وكثيرا ما كان يبقى فى مكان واحد ساعات بأسرها ، ناسيا نفسه ، ذاهلا عن حياته كلها ، غافلا عن كل شىء فى العالم ، وحيدا حزينا ، يهز رأسه يأسا وحسرة ، ويتمتم قائلا : « كاترين ، حمامتى العزيزة ، أختى الوحيدة ! » •

وهذه فكرة رهيبة مروعة تأخذ تعذبه، وتحاصره مزيدا من المحاصرة يوما بعد يوم ، ثم تستحيل عنده الى يقين فواقع ؛ وهو أن عقل كاترين سليم ، ولكن ما وصفها به مورين من أنها قلب ضعيف ، هو وصف صادق • أصبح يلوح له أن هناك سراً يربط كاترين بالشيخ ، ولكن كاترين ، الجاهلة بالجريمة ، قد أصبحت فى قبضة يده خاضعة لسلطانه كحمامة بريئة • من هما ؟ ان أوردينوف لا يعرف جوابا لهذا السؤال • ولكنه يرى أن طغيانا فظيما لا مهرب منه يجثم على صدر هذه المخلوقة

الشقية التي لا تملك أن تحمي نفسها ، فيشعر أوردينوف من ذلك باضطراب في قلبه ، وتمتلئ نفسه ألماً عاجزاً . كان يتصور كآثرين إنساناً وضعوا على عينيها غشاوة ، واخذوا يخيكون اليها غادرين انها تسقط وتهوى : انهم يعذبون قلبها المسكين « الضعيف » تعذيب الشهداء ؛ يصورون لها الحقيقة على ما يريد لهم هواهم زوراً ، يقونها في العماوة عامدين ، ويتملقون بالمكر قلبها العارم المضطرب ، فيقصون بذلك ، شيئاً بعد شيء ، جناحي نفس تتطلع الى الحرية ولكنها عاجزة عن التمرد ، عاجزة عن الانطلاق الى الحياة .

أصبح أوردينوف يزداد توحشاً يوماً بعد يوم . ويجب أن نعترف بأن أصحابه الالمان كانوا يراعون توحشه ويحترمونه . وكان يؤثر لنزهاته ساعة الشفق ، والاماكن البعيدة المقفرة . وها هو ذا ، في ذات مساء حزين ممطر ، يلقي ياروسلاف ايلتس في زقاق ضيق موحش .

كان ياروسلاف ايلتس قد انحل جسمه كثيراً . ان عينيه الملتعنتين قد أصبحتا كإيتين ، وان شخصه كله يدل على انه فقد اوامه . كان يرلض لعمل من الاعمال لا يطبق تأخراً . وكان مبلاً متسخاً وكانت قطرة من المطر تتدلى في صورة عجيبة على أنفه الدقيق الذي ازرق الآن ازرقاً شديداً . وكان عدا ذلك قد أرخى لحيته عارضيه .

دُهِش أوردينوف من اللحيتين ، ودُهِش مما ظهر في صديقه من انه يريد تحاشيه والهروب منه . شيء غريب . ان أوردينوف قد جرح هذا الأمر قلبه الذي لم يكن قبل الآن في حاجة الى عطف أحد . ان الشخص الذي عرفه أوردينوف قبل الآن بسيطاً طيباً ساذجاً - بل قل اذا شئت الصراحة غيباً ، ولكن على غير ادعاء - ان هذا الشخص يبدو الآن لأوردينوف أحب الى نفسه وأحلى في نظره . والانسان ، في مقابل ذلك ،

ينفر من الشخص النبى اذا رأى هذا الشخص النبى ، الذى لعله أحبه
لنباوته نفسها ، اذا رآه يصيح ذكيا على حين فجأة • ولكن الحذر الذى
عبر عنه وجه ياروسلاف ايلتس حين نظر الى أوردينوف نظرة أولى لم
يلبث أن امحى ، ثم اذا هو يجرى مع أوردينوف حديثا فيه كثير من
الصدقة • قال له فى اول الامر ان هناك اعمالا كثيرة ينبغى له أن يقوم
بها ؛ ثم قال له انهما لم يلتقيا منذ زمن طويل ؛ ولكن سرعان ما جرى
حديثهما مجرى غريبا على حين فجأة • أخذ ياروسلاف ايلتس يتحدث
عن زيف البشر عامة ، وعن شرور هذا العالم ، وعن أن كل شيء باطل •
وتحدث عن بوشكين بغير اكراث ، ثم قال فى حق بعض الأصدقاء كلاما
يدل على مرارة فى قلبه • وأشار أخيرا الى كذب أولئك الذين يزعمون
أنهم أصدقاء ، على حين أن الصداقة الحقة لا توجد ولم توجد فى يوم من
الأيام • الخلاصة أن ياروسلاف ايلتس قد أصبح ذكيا أكثر مما يجب •
لم يعترض أوردينوف بشيء ، ولكن حزنا كبيرا استولى على نفسه ،
كما لو كان يدفن خير صديق من أصدقائه •

صاح ياروسلاف ايلتس يقول فجأة ، كمن تذكر أمرا هاما جدا :
- آه •• تخيل •• كدت أنسى أن أحكى لك •• هناك جديد •••
أفضى اليك به سرا ••• هل تتذكر المنزل الذى سكنت فيه ؟

ارتعش أوردينوف واصفر وجهه •

تابع ياروسلاف ايلتس يقول :

- تخيل أننى اكتشفت فى هذا المنزل مؤخرا عصاة من اللصوص ••
أقصد من المهربين والمحتالين وسائر أنواع اللصوص • فاعتقل بعضهم ،
وما يزال بعضهم الآخر ملاحقا ••• أصدرت أوامر مشددة ••• وهل

تصدق ؟ أنذكر صاحب العمارة ، ذلك الشيخ العجوز جدا ، الوقور ،
الذى يدل مظهره على النبيل ...

— هه ؟

— هل تؤمن بعد الآن بالانسان ؟ انه هو رئيس العصابة كلها !
كان ياروسلاف ايلتش يتكلم بحماسة ، ويتخذ من هذه الواقعة
المبتدلة حجة للحكم بالسوء على البشر جميعا . لقد كان هذا فى طبعه .

سأله أوردينوف بصوت خافت جدا :

— والآخرين ؟ ... ومورين ؟ ...

— مورين ؟ لا .. هذا شيخ محترم .. نبيل .. ولكن اسمح لى ..
ان سؤالك هذا يلقي ضوءا جديدا ..

— ماذا ؟ أيكون واحدا من أفراد العصابة ؟

وثب قلب أوردينوف استطلاعا .

قال ياروسلاف ايلتش وهو يرمق أوردينوف بعينه المنطقتين علامة
التنكر :

— ولكن .. لا .. ما هذا الكلام ! .. ان مورين لا يمكن أن يكون
واحدا منهم ... لقد سافر مع زوجته الى بلده قبل الحادث بثلاثة أسابيع
... علمت ذلك من البواب ... هل تتذكره ، ذلك الترى القصير ؟